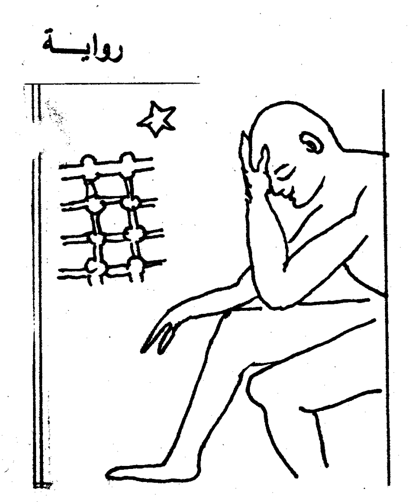
عبد الفتاح مرسى

رحاب

على حافة النهار

رواية



١- طَرقات الفجر

. . الطرق على باب الشقة متواصل على غير العادة ، يأتى إليه متناهياً فى الخفوت . مختلطاً ببقايا حلم ليس مريحاً ، يصعد إلى يقظة غير تامة ، ثم يجذبه الكرى إلى اسفل ، يقبض عليه فيختلط بهامش أضغاثه ، يفلت مرة أخرى ، نام ليلته متأخراً غرق - على الفور - فى لجة عميقة ، تكرر الطرق فى الحاح ، أفلت (الحلم) أدرك انه نائم ، وبالباب زائر ، وزوجته تحاول ايقاظه وهى لا تزال ناعسة . .

« طرق على الباب ، من سيأتى إلينا فى الفجر ؟ »

اعتدل ، نظر فى الساعة ، ازداد ضيقه عندما استمر الحاح الطرق ، مرهقاً قام مشى على حاشية سميكة ، قدماه تغوصان ، يختل توازنه ، يتطوح ، وصل الى الباب وفتحه . . وهو لم يستيقظ بعد . .

« سقط بين عجلات قطار سريع ، هل يمكن لمن يسقط بين عجلات القطار ان يفكر بهدوء فى شئ محدد ؟ لحظة سريعة حاسمة وبعدها تتناثر اشلاؤه ، لحظة تومض كالبرق ، اللحظة الباقية من العمر، مكثفة ، تطلق قوتها النووية المحبوسة ، استجابة لرد الفعل . حتى الذين يتطوعون للقيام بأعمال فدائية ، انتحارية ، يتوقون للحياة . . الضربة فاجأته على مؤخرة رأسه . . . فيما بعد ذلك . . كان استمراراً للحلم المختلط بما لا يحصى من الهواجس . . »

لكنه كان يراهم ، ثلاثة ، وآخر بالخارج . . يفتشون ملابسه وملابس زوجته فى الدولاب ، يبعثرون الكتب ، يرفعون فرش السرير ويجوسون تحته ، يتحسسون أعلا (السيفون) وخلف اطارات الصور وتحت

(الثلاجة) . . ثم يتصفح احدهم الكتب على مهل ويعود ويلقى نظرة على (العناوين) . . لم يجدوا سوى ثمانية عشر جنيهاً - باقى مصروف البيت ، لكن بعد ان أخذوا معهم بضعة كراسات كان يكتب فيها خواطره وأفكاره ، عاد يتأمل ملامح هؤلاء الأشخاص ، كانوا منهمكين فى عملهم بكل دقة ، يتصببون عرقاً ، بينما هو يرتعد . . حاول ان يتماسك ، ان يبقى واقفاً ، وهو يتابع عملهم ، للحظات كان يغيب عنه أن التفتيش الدقيق هذا يتم فى بيتـه - ربما تخيل هذا من قبل - وان هذه السيدة التى تحتضن طفلاً لم يتعدى العامين ، زائغة النظرات . عقدت الدهشة لسانها ، هى زوجته . .

* * * * *

أجلسوه فى المقعد الخلفى ، بين رجلين أشداء ، واحداً كان يكفى أو لا أحد ، قال من بدا كبيرهم وقد جلس بجانب السائق ، متصنعاً الظرف :

- بالطبع : تعرف إلى أين أنت ذاهب ؟

لم يرد . . كان يبحث عن اجابة وعندما تكلم معرباً عن عدم فهمه لما يحدث - بصوت تبين غربته عنه - ضحك الرجل هازءاً . . وقال :

- عيب يا زعيم . .

وإذا بالآخرين يضحكون . كأنه قد أطلق فكاهة . . حتى انه من خلال - غيبوبة الموقف - ابتسم ، انطلقت السيارة كالسهم فى (طريق الحرية) الخالى ، هواء الفجر البارد ، رطب ، لكن زفراته كانت ساخنة ، الليل لا يزال جاثماً على صدر الفجر .

* * * * *

(تتقاطر بلادى على ضفاف النيل وداخل نفسى ، تمسك كل بلده بيد الاخرى فى رقصة نوبية صعيدية بحراوية ، تتزايد دقات كعوبها على

الأرض الخضراء قدم ، وعلى الأرض الصفراء قدم ، واذا توالت الدقات ، تنبت تحت الاقدام حبات القمح والعدس والحلبة ، بينما أعناق الراقصين تطاول سباطات النخيل الباسقة ، ثم تتمادى فى مسارات السحب . وعلى الصدور والسواعد وشم للاسود الممسكة بالسيوف . .)

وفى غرفة أكبر من غرفة نومه قليلا . تحتوى على مكتب وثلاث مقاعد وكنبة ومكتبة صغيرة مزدحمة بالدوريات المخصصة للشرطة والأمن ومطاردة المجرمين ، وقصص حياة العتاه ، وبرفان عند الباب يمنع تسلل النظر إلى داخل الحجرة ، إذا ما فتح الباب ، كان قد تعثر به - وهو مندفع بالدخول - لم يدخل على مهل كما دخل المبنى وصعد سلالمه ومشى فى طرقاته - عند الباب - دفع فى ظهره بقوه عندما تلكأ فى الدخول .

- تفضل يا رفيق . . !

وأغلق الباب بعدة تكات

« السحب القادمة من الشمال ، تدفعها الريح كما تدفع أشرعة المراكب لصعود النهر ، تحيط بأشرعتها الطيور التى وجدت الملاز فى دفء بلادى ، أنا وحدى الذى أشعر بالصقيع - برغم جونا المعتدل - ولكنى لازلت أحسد هذه الطيور التى تشق عنان السماء ، فترى إنعكاس قريتى على صفحة النيل وترى شواشى النخيل ، قد يصيبنى الوهن ، غير أنى سأواصل صنع أجنحتى ، يوماً ما سأحلق . . . »

لم يجد فى جيبه قلماً . . كان من عادته ان يحتفظ ببقايا قلم رصاص . . !

* * * * *

أمضى الأيام الثلاثة الأولى ملولا كانت ثقيلة الوطأة على نفسه ،

مفعمة بالاحاسيس المتباينة حارس للنهار من خارج الغرفة وحارس فى الليل يلازمه من الداخل لا حديث بينهما ، يجلس على مقعد خلف الباب ، ينظر إليه ، او كلما نظر إليه ، وجده يحملق فيه ، وجهه شمعى جامد الملامح ضجت أعضاؤه من طول الجلوس ، تخشبت مفاصله لم يكن أمامه إلا أن يروح ويجئ على امتداد السجادة القديمة ، كحيوان حبيس أو يجلس مغمضاً عينيه . . للذكريات . . للخواطر الهائمة . . وعيون الحارس تجلده

* * * * *

الرطوبة أكلت الحجارة ، حللت الجدران ، تشققت فى خطوط عبثية ، بعض الاجزاء سقط ملاطها الداكن فبدت الحجارة البيضاء فى أماكن شتى ومساحات أخرى ظهر تحتها الطوب الأحمر ، ثمة طبقات من الجير بألوانه التى دهنت به على مدار سنوات ، تساقطت قشرتها عن ألوان مختلفة ، باهته ، وغامقه ، مما جعل - جدار المقهى القديم - يعكس محاولة لرسم لوحة تشكيلية ، كانت تشد أنتباهى ، كثيراً ما تأملت تلك الجدران المغلفة بعتامة لا يجلوها الضوء الكابى الذى يصل باهتاً متخاذلاً ، برغم سطوع الشمس خارجه .

لكن عندما تدار المناقشات ، ويلتقى الاصدقاء ببعضهم فى صحبة حميمة ، لا يلتفت أحد منا إلى - استمرارنا - فى اتخاذ هذه المقهى الفقيرة الضيقة . المندسه فى قلب سوق (زعريانه) مكاناً مفضلاً للقاءات .

هذا المكان والحى الشعبى الذى يحيط به ، بقى بداخلى (منكوتا) كالاصدقاء الذين يمرون بحياتنا ، ويتركون فى نفوسنا أثراً لا يمحوه الزمن .

هذا المكان الذى أتاحته لنا الظروف . لنطلق فيه أمانينا ، كانت سخونة مناقشاتنا تبدد من رطوبته فى الشتاء ، وتلطف من حرارته فى

الصيف . .

حتى اننا عاملناه ككائن ، وأطلق عليه (رشدى عبد الدايم) اسم (المجعره) وأمسى للمجعره تاريخ أرتبط بنا وأرتبطنا به . . !

* * * * *

لوحة نحاسية مثبتة فى قاعدة رخام أصفر ، تحمل رتبة عسكرية واسم صاحب المكتب ، للمكتب نافذة طويلة تتقاطع بأسياخ حديد مبرومة ، هل كان فى ذهن منشنها انها تستخدم (كزنزانة) تطل على حديقة زرعت بالزهور والاشجار المورقة ، محاطه بسور عال يختفى فى تعريشات شجر الفيكس المتكاثف ، يمرح فى احواضها بضعة كلاب بوليسية كبيرة الحجم (لست وحدك . . لعل أمر القبض شمل آخرين ، بل بالتأكيد شمل آخرين . فقد كان يتناهى له أصوات وجلبة لنشاط عارم خارج الغرفة فى الليل والنهار ، وربما كان أهمالهم له ، أنهم مشغولون فى غرف الادوار العليا والسفلى) فى اليوم الرابع اختفى الوجه الشمعى جامد الملامح ، وأتى حارس آخر (الناس معادن) لم يطق الصمت طويلاً - كف عذابه - ولكنه كان قد اجتاز منطقة أخرى . . رياح خماسينيه محملة بزعابيب الغضب تعصف به ، ثم تهدأ مخلفة فى داخله أكوام من التراب - زوجته المدرسة كانت تعامله على انه ولدها البكر ، تدلله ، ولكن ،لطبيعة المهنة . كانت تكثر من شرح الوصايا العشر ، ماذا أنت فاعله الآن يا هدى - وحسام الطفل كان يحتل كل المساحه وأى مساحة تخلو من الإنفعالات ، إلا ان الأفكار كانت تنقض عليه كوحش مهاجم .حانق ، تأخذ من - القلق - أحفانا وتعتصرها بداخله ، فيلوذ . . بهدى وحسام ، ومرات يخيل له ، أن الحلم الغريب مريح . . ربما كان لا يزال مستمراً . يستيقظ ، يغتسل ،

يرتدي ملابسه ، يحرك الملعقة فى كوب الشاى يستمع إلى الراديو يتجاذب اطراف حديث معها لترتيب شئون اليوم ، الأكل ، العيش ، الاشياء المنسيه ، يحصى نقوده ، يبدل منديله وجوربه . طبقا لنصائحها الدائمة - الشارع ، مشكلة الوصول إلى العمل ، الباص المذدحم ، الاجسام المضغوطه ، يكاد يطلق إحتجاجاً ضد الراكب الذى يضع كوعه فى جنبه ، يتنبه ، مرة أخرى فى سكون الغرفة ليس إلا الأصوات والاقدام خارجها ، سياط الانتظار المبهم ، شطائر ، سجائر ، ماء ، يهفو إلى كوب شاى ، إستجاب الحارس وأحضر له كوب من البلاستيك ، أهى من كثرة التدخين ؟ أم التفكير ؟ أم انها من وجع البطن . . أطل عليه (شخص) . . تذكر أنه رآه - ولكنه لم يتذكر (أين)، أطل عليه آخر ، تذكره أيضاً ، صورته مألوفه لديه ، أطل . . إبتسموا فى وجهه الواجم - ابتسم - كل منهم إبتسم نفس الابتسامة ، أيمكن أن تتطابق إبتسامة على ابتسامة ؟ بدأت مرحلة الاسئلة الجانبية ، لكن تلك الابتسامات تسللت إلى داخله ، أشاعت فى أعماقه شيئاً من الضيق . . أشياء لا نملك حيالها سوى الصبر ، لم يعد يهتم بالوجوه التى تطل عليه ثم تختفى ، أمست وجوههم كالقروش الممسوحة . كما ان عيونهم بأشكالها الجاحظة ، الضيقة ، الخبيثة ، الساخرة . لم يعثر بينها عن العيون المتعاطفة ، كل تلك العيون ترقبه ، إذ ربما راقبته من قبل . .

- نعم أنا ربيع مرعى . .
- واين زملاء المجعرة
- لعلهم ضيوفكم

(المستجوب) المهندم الذى أتى مباشرة من حمام منزله ، فى اليوم

الخامس ، تسبقه رائحته الذكية ،تضوى ذقنه اللامعة ، نفض التراب ، بأن نفخ أنامله ، ونظر الى (المتهم) نظرة طويلة ثم قال مبتسماً بصوته الوسط بين الرجولة والانوثة كأنه صوت غلام . .

- ذقنك طويلة ، ملابسك . . الا يسمحون لك بالاغتسال . . سأطلب حالا حضور الحلاق . .)

خرج على النور وبعد قليل دخل الحلاق ، أجلسه على مقعد بدون ظهر ، أحاط صدره بفوطة زرقاء « لماذا تسلل إلى رأسه خاطر ، ان الحلاق (المتجهم) يمكنه أن يذبحه فى هدوء ، قال بصوت مسموع :

- « طيب . . لماذا ؟ »

قال الحلاق : هذه أوامر يا أستاذ ، من فضلك لا تتحدث معى . . !

جرى الموسى على صفحة وجهه ورقبته « خشش . . خشش . . »

بعد ان تزين . جاء الرجل - المهندم - من المؤكد أنه ضابط جميعهم يرتدون الملابس المدنيه ، خمن ، أن رتبته عالية فهو يلقى بالتعليمات تنفذ على الفور ، وعند حضوره انقطعت (الاصوات الخارجية) بضع دقائق ، حتى أنه أحس بذلك الهدوء الذى ساد المبنى خارج الغرفة ، واذا بصوت شخص يتلقى ضربات عاليه الوقع ، يستغيث ، أتى إليه الصوت داخل الغرفة واضحاً كأنهم يضربونه خارج باب المكتب مباشرة أو خلف (البرڤان) بالحجرة ، . . تشاغل (الضابط) فى تصفح بعض أوراق ، فترة كافية ليسمع (المتهم) بوضوح إلى بعض أساليب الاستجواب . . (حرام عليكم . . دب . أنا مريض . . دب ، آه . . كفاية . . آآآه . .) تباعد الصوت كأنهم جرونه بعيداً . كف . . بدأ (الضابط) عمله ، رفع وجهه المستدير الممتلئ ، كان يبتسم وهو يقول :

- بدون أسئلة ووجع دماغ . . وحتى لا تتأخر عندنا أكثر من ذلك . يمكنك أن تقول كل شئ ، وتعود إلى منزلك فى نفس الليلة ، ألم يوحشك حسام . . أمامك فرصة . . ان تتحول من متهم إلى شاهد . . !

* * * * *

(من قمم الجبال الشاهقة ، أتى إلينا النسر فارداً جناحيه القويين ، حلق فوق رؤسنا ، فرفعنا الرؤس عالياً ، أشرأبت أعناق الرجال . . وزغردت النساء ، وعندما راح يجول فى الوادى تبعناه . . وعندما تخطى الوادى إلى الصحراء ، عدونا خلفه . . خشى البعض علي صغار النعاج والدجاج فأخفوها حتى نفقت ، وخشى البعض علي ثمار الأشجار فجمعوها قبل النضج ففسدت ، إلا اننا حلقنا بعيداً ، نطير حوله فى فرح. من الذى أطلق السهم على نسرنا . . فسقط من حالق يهوى . . هل تسببت فى ذلك ؟ كيف ؟ وهو نسرى الذى رفع رأسى . . (أكتنفنى الحزن الممض) ولكن ، عزائى ، أن ظله لا يزال ينعكس على أسطح البيوت والساحات والكنائس والمساجد هناك بالتأكيد خطأ ما ، سوف يكتشفونه بالقطع . .)

لم يجد سوى الزفرات الحاره فى حلقه ، تيبس لسانه ، نشف الكلام فلزم الصمت وكان على (الضابط) واسع الصدر - ان « يتسلى » بالقول فتحدث . . وكلما أوغل ، أكتشف (ربيع) أنه أمام شخص متوسط الذكاء متوسط الثقافة ، متوسط القامة ، متوسط الطبقة . . ! للحظات أدرك ان معظم الطغاه ، يأتون من هذه « المنطقة » يحققون صعوداً على درج من الابدان ، ولا يهبطون إلا إذا تحطمت عُمد المعبد . . . لذا . . فقد لاك فى ذهنه . . ثلاثة بدايات ، لم يحدد بعد أيهن يبدأ منها

(١) حكاية الذى عاد من الميدان ، لم يجد له مكاناً يستحم فيه

ليزيل عن جسده العرق ودم الرفاق الذين استشهدوا بين يديه ، وتراب الخندق ، قالوا له : نأسف . . لقد قسم والدك ميراثه على أخوتك واعتبرك فى عداد المفقودين ولم يسمحوا . . إلا بإستقباله كضيف ، حتى يسلم عليه الجيران وباقي الأهل . .

قالوا له : إن الضيف لابد له من الرحيل . . !

وقالوا له : إن الضيف لا يتكئ على الوسائد ، عليه ان يجلس متأهبا على طرف المقعد . .

. . لم يجادلهم ، لأنه مرهق ومتعب وغاضب ، فنام . . عندما استغرق فى النوم أيقظوه وقالوا له : أن غطيطه يقلق الأطفال الأبرياء ، فقرر الرحيل في الظلام ، وعندما منحته (أمه) شمعه كانت قد نزرتها لأحد الأولياء ، تشعلها فى مقامه إذا ما برأ أبوه من المرض ، غضب أخوته ، لأنها لم تطلعهم على سر تلك (الشمعة) وسألوها . . كيف لا يكون لهم فيها نصيب . . !

(٢) حكاية الذى حرث الأرض سنوات ، بذر فيها البذور ، سهر الليالى يرويها ويخوض فى أحواضها ، ولكنها لم تنبت سوى الحسك والشوك ، تأسى على الجهد الضائع ، حزن علي أمنياته المهيضة الجناح ، أنقطع عن الزاد ، عضه الجوع ، التهم (تمره) وطوح بنواتها على مدى الزراع ، فإذا بها بعد أيام نخلة . . أنفق السنين يرعاها ذهب العمر وجاءت النخلة طويلة باسقة . . وعندما حان قطافها . . هز النخلة فأسقطت على رأسه عدداً لا يحصى من الحجارة . .

* * * * *

(٣) حكاية الذى لم يتبق له شئ . فصعدوا به إلى (منصه) المزاد

، تولى النخاس عرضه على المشترين ، جعله يدور - يعرض مزاياه الجسدية يفتح الفم ، يشلح الساق ، وبدأت عملية (البيع) فإذا بسعره يتراجع . . حتى حدود الصفر ، حاول وقف البيع ومغادرة المكان . . أمسك بتلابيبه رجال أقوياء ، طالبوه بالعمولة ومصاريف الدعاية وإيجار المنصة . . أرغم على العودة . . إلى المنصة . . وفتح المزاد ، بدأ أول مشترى بعشرين فى المائة تحت الصفر . . !

* * * * *

استمتع (الضابط) بحديث المتهم ، هكذا بدا له ، كان يهز رأسه ، علامة الرضا والفهم لمغزى الحكايات الثلاث . .ثم قال : لكن هذا كله بعيد عن السياسة ، انت لم تتحدث فى لب القضية ، لم تذكر شيئا عن (المجعرة) . . ثم ان حكاياتك تفيض بالالغاز . . !



٢- وجع القلب

. . لم تكن فى الاصل مقهى ، كانت حجرتين متداخلتين ، الحجرة الكبيره تطل على شارع السوق والحارة المتفرعة منه ، جزء من بيت قديم أمتلك (أبو فخرى) بضعة قراريط فيه ، إرثاً عن والده ، جعل من نافذتها المستطيلة بابا على الشارع بضلفتين من خشب الشجر المصنع يدوياً ، وفى هذا الدكان ، فشلت محاولاته المتعدده فى ان يكون تاجراً ، باع الفاكهة ، تعطنت ، باع مخلفات مصانع النسيج من (الكهنة) وأقمشة الدرجة الثانية إلا ان نشؤ سوق لهذه المخلفات أمام مقابر عامود السوارى ، كان يجذب زبائنه ، على الرغم من مشاق ركوب قطار أبى قير وترام كرموز ، أغلقه فترة وعمل فى البناء ، ثم عاد وتعطل ، عرض الدكان للبيع أو للإيجار ، علق اللافته وجلس بمدخله ، اعتاد معارفه مؤانسته بالجلوس معه ، قدم لهم الشاى الذى تعده (فردوس) - أقترح عليه أحد الاصدقاء : ما رأيك ياسى عبد القادر ، قعده بقعده ، اصنع براد شاى وستجد ألف زبون فى السوق تتوق نفوسهم لكوب شاى حلو مثل هذا . . .)

ساعتها ، لم يعجب بالفكرة ، لم يتصور أن (التاجر) الذى تطلع للنجاح والشراء يتحول إلى (قهوجى) للباعه الجائلين وأصحاب المحلات والدكاكين ، كيف يدور فى السوق ممسكاً ببراد شاى وصينية عليها بضعة أكواب ، وأبوه كان موظفاً بالمجلس البلدى ، يقرأ ويكتب ، ومن أولئل الذين أمتلكوا بيوتاً فى (زعربانه) . . بيت حقيقي ، لم يمر بمراحل التطور والنشؤ العادية لبيوت الحى ، يبدأ من الخشب الكسر والصفيح الصدء ، ثم يحبو ، ببناء الجزء الأمامى ، ثم يقف بغرفة أو غرفتين ، ويشب فتنتقل

الأكشاك فوق السطوح ، (بيتهم) تخلق بيتاً عفياً ، تفنن البناء وقاطع الاحجار فى عمل الكرانيش على الجدران وحول النوافذ وأبدع استدارة باب الحارة بمستويين ، وهبط بأكتاف بارزة ، تعطى البيت شكل القلاع العربية ، وقد بنى من دورين دفعه واحده ، كان أهل (زعربانه) القدامى يضربون به المثل ، ويعتبرونه بيتاً قد ضل طريقـــه من شـــارع (الافيزون - المتراص بالبيوت ذات الطوابق) واستقر فى شـــارع (الكسائى) الذى يضم الفئات الكادحة والمتعطلين والفقراء . .

(ها قد أتت عليك الأيام لتنضم للقطيع)

منك لله يا فردوس ، اربكتينى بالعيال الأربعة ، كسروا ظهرى ، حمل ثقيل ، والغلاء والبطالة بعد الحرب ، كنت أستطيع الافلات إذا كان لى طفل أو اثنين ، حتى لو أضطررت للرحيل وراء لقمة العيش ، جعلتينى أخشى الإقتراب منك ، أهرب حتى لا أحط يدى فى يدك ، خشيـه أن تحبلى مرة أخرى ، ماذا أفعل وكلما لمستك أنتفخ بطنك وأصبح على مناخيرك ، ولاده ، مصاريف ، وجع قلب ، بعت ما وراءى وما أمامى أيام السلطة ولت ، وأصحاب الأعمال يقتصدون فى التعيينات ، والتجاره فوق رأس المال شطارة ، لم يعلمنى أياها والدى (الموظف) صاحب الدواية والقلم ماذا سيقول عنك الناس يا عبد القادر . . (الايام جاءت بدماغك الارض)

لكن على استحياء ، أحضر بداخل الدكان ، دكة وبضعة مقاعد ومنضدة ولوازم إعداد الشاى . . « الظروف تغير الاحوال » . . نشأت المقهى وجذبت مهارته فى اعداد الشاى الزبائن ، وجذب الموقع شباب (زعربانه) ، الذى لم يكن أمامهم سوى مقهى (قدروه) بالقرب من محطة الظاهرية . .

. . مشى الحال ، إلا أن أبا فخرى كان محاطاً ببوز الحظ ، بينما كانت (فردوس) تلد له الابن الخامس ، توفيت ، جاء الطفل ورحلت الام . .

– هربت يا فردوس ، عملتيها وتركتيني وحدى ، ألم تقولى مراراً ، ربنا يجعل يومى قبل يومك ، طيب ، لماذا جئت بهذا الطفل ، ماذا أفعل به ، وانت عارفه الحال عيالك الكبير منهم لا يعرف يطعم نفسه . .

– حرام عليك يا أبو فخرى ، تعاتب من أصبحت فى دار الحق ونحن فى دار الباطل .

– هى تسمعنى ، ومن عادتها يا جماعة إنها لا ترد على وأنا زعلان .

– لا حول ولا قوة إلا بالله . .

حزن عبد القادر حزناً شديداً وشهدت المقهى زحمة من الأولاد الصغار ، أكبرهم فخرى فى الرابعة عشر ، ومن أجل الطفل الرضيع ، تزوج من قريبته (حميده) سيدة سبق لها الزواج ، كان شرطه الأول لها ، عدم الانجاب ، لم ترد عليه ، وعندما كرر الشرط ، قال أحد شهود العقد . . «يا سيدى خليها على الله . .»

ولما كنا نذهب إلى المقهى كنا نستمع إلى فاصلاً من الشكوى. والتبرم يؤديه (عبد القادر) الذى كبر فى السنتين الاخيرتين عشرين عاما تساقطت أسنانه ، تغضن وجهه ، انحنى ظهره « بنت الهرمه ، اتفقت معها وكان شرطى واضحاً وأمام شهود ، لكن ما فى فائده ما كادت تضم القسيمة فى يدها حتى ضربت بشروطى عرض الحائط ، قالت : أنا ست يا عبد القادر ، نفسى فى عيل يربطنى بك ، طيب والعيل الثانى ؟

احد رواد المقهى من مدمنى الحشيش ذائباً فى فنجان القهوه المر ، تدخل قائلاً:

- الحبل الأول كان (قايط) يا أبو فخرى . . حاكم الستات زى الانجليز مالهم كلمه ولا وعد . . ولما انت فشلت فى المفاوضات . . إستقيل يا أخى . .

كنا نضحك فى صدورنا ، احتراماً لأحزان الرجل وثورته على (حميده) التى تترك عياله - كما يقول - بدون نظافة وبدون أكل وليس على الحجر إلا عيالها - ثم بصيح - طيب ، وعيالى .

عاد الرجل المسطول يقول : (خرطهم للوز ، اعمل بهم سبحة ! !) ويستغرق وحده فى الضحك . .

لم يكن أمام (عبد القادر) إلا العمل ليل نهار فى المقهى ، أحضر دومينو ، وطاوله وأوراق لعب ، لحث الزبائن ، لعبوا القمار ، راهنوا على الطلبات ولم يمانع من أجل عدداً إضافياً من المشروبات ، قدم المعسل ، سمح بتدخين الحشيش فى آخر الليل ، ثم تورط فى بيع لفائفه ، قال له (صلاح شريف) :

- عيب يا عم عبد القادر . .

قال الرجل وهو يشعر بخزى حقيقى :

- استطيع أن أنكر ، لكن ماذا أفعل فى كوم اللحم . . ؟

قلنا له : كما أن الحشيش ينزل ستاراً على العقل ، لا يبدل الواقع ، فإن منطقك هذا يفعل نفس الشئ ، لأنك إذا ما قبض عليك ، خسرت (الجلد والسقط) .

كاد يبكى وهو يعزز أقواله بعدد من الايمانات المغلظة

- أخشى ان افقد ناس مثلكم ، يشرفون قهوتى ، إنشاء الله سوف أمتنع عن هذا بتاتاً .

الرجل كان يتكلم بصدق ، ربما حاول تعديل مساره ، إلا أن ادمانه هو شخصياً للحشيش تدخيناً واستحلاباً ، جعله لا يستطيع المقاومة ، أعتقد أن هذا يمنحه طاقة للعمل والسهر وطاقة لاستجابات زوجته الشابة ، التى لا تنى تذكره ان عمرها نصف عمره ، وانها دفنت نفسها وهى حيه ، وأنها زهقت من لعب دور الخادمة له ولعياله ، كان يحاول ترضيتها بقدر ما يستطيع ، إلا أنه هو أيضاً - كان قد زهق من نفسه ، فواصل حالة الاغماء الدائمة . .

* * * * *

بين الربيع والشتاء شاطئ يلعب فى رمله الأطفال ، يداعب الموج أقدامهم الصغيرة فيغطيها ثم يدفنها فى الرمال ، بقى شاخصاً فى الأفق ، يحلق مع طائر بعيد يهتز فى مقلتيه شراع سفينة عند الافق ، يدس قدمة فى ملايين الأجزاء ، يوماً كانت لأشياء تتحرك بالحياة ، عبر خيط رفيع بين المغرب والفجر قد يتذكر أن صحارينا - على اتساعها ، كانت غابات متشابكة الأغصان ، وشوس الهواء فى أذنه فإذا بها إبتهالات . . هل يمكن ان يلقى خطيب الجمعة ، الخطبة من فوق آلة الحرث والحصاد ؟؟ يتناهى له . . صوت آذان الفجر فاعتدل جالساً . . إعتاد . . مقاطعتهم لنومه الذى لا يستطيع الإمساك به . .للحوار مسار وزوايا ، يتمهل فيها ليلتقط طرف موضوع ، يتبدل الضابط الذى كانت تستهوية الحكايات دون مقاطعه . . ربما كان دوره قد انتهى إلى هذا الحد ، وجاء آخر ، أطول قامة ولساناً ، جعله لا ينسى البدلة الأميرية التى لا يرتديها ، لف ودوران ،

تهديدات بمنع الطعام القليل ، والسجائر ، التلويح بالآلات التى تكشف الكذب والآلات التى تعثر على الفكرة التائهة ، والحقن التى تجعل الانسان يهذى بكل شئ . . »

وينهك الضابط من الصعود إلى درجة الغليان والنزول إلى المداعبات الباردة . . مسافات قطعها ذهاباً وعودة ، عشرات المرات ، حتى أصابه الكلل . .

يخرج (الضابط) ويدخل الحارس فيجد (ربيع)منهكاً . . قد انسل داخل شرنقته . . (حميده الشابة ترغب فى لعب دور الزوجة دون النظر إلى مدى التعاسة التى حلت بزوجها ، حظها الشقى ، جعلها تأتى إليه فى الوقت غير المناسب ، شاخ ، انهكته الايام ، ليس لديه إلا بقايا تفل شاى)

(الحارس الذى أغلق الباب ، وجلس على المقعد ، يريد الحديث معه

– هل أنت الآخر لك دور محدد ؟ اهبط من فوق رأسى ومن داخل أذنى ، ولكنه لا يتحمل الصمت فهو طوال الوقت قابع خارج الغرفة فى انتظار ان يفرغ الضابط من (استجواباته) يود (ربيع) لو أن لديه طاقة ، هو الآخر يود الحديث ، وحتى يبقى الاتصال قائماً ، دفع بعدة أسئلة ، ضغط على مفتاح المذياع ، أنطلق المخبر فى الحديث وكلما غفى وأطبقت جفونه ، يصيح فيه (واخد بالك) ربما كان ذلك جزء من إنهاك القوى واضعاف مقاومته . . بينما يتخاطفه النعاس على رتم صوت الحارس فى إغفاءات قصيرة ، يتحامل ان تبقي عيناه مفتوحتان ، ومن حين لآخر يرفع رأسه ويدعها تسقط على صدره ببطء .

* * * * *

تاهت نظراته فى الاشياء المتراكمة بين مالدى وما لديه ، مرارا حاول

عبور كافة الحواجز فى وقت قياسى ، ولكنى كنت أعدو أمامه ، محافظاً على مسافة مناسبة تجعله لا يرى داخلى بوضوح ، اعتمد على (نشراتى) التى كثيراً ما اختلطت بنشرات (حالة الطقس) إذا ما اعتقد أنى سأكون صحواً ، وخرج بالقميص ، هطلت أمطاراً ، وإذا ما أحضر على كتفه المعطف أشرقت شمساً حامية ، آمراً كافة الظلال بالاختفاء فى جزوع الاشجار . . إلا أنه عندما كان يرحل كان يترك لى عيوناً على الجدران ومن خلف البرقان ومن خلال النافذة وعلى المقعد خلف الباب ، عيوناً تنتظر ان يوارب بابى فتتسلل داخلى ، وحتى لا أغفو ، رحت أتطلع فى صفحات لا ترى ، ماثلة دائماً فى ذهنى ، صوت الآلات داخلى تهدر ، تبعد اللصوص ، وتريح الكلاب من النباح ! (غور فى داهيه ولد بايظ)

– ماعليك يا عم عبد القادر . . فخرى ابنك .

– ملموم على شوية عيال تالفين ، جاء ليسرقنى يا ربيع يا ابني ، يلم الفلوس من الزبائن ، ويخفيها فى دكة اللباس ، لا هو ولا بنت اللئيمة ،حاسين أنا معزور قد إيه ، طلبات ، طلبات ، طلبات ، والسوق نايم ، وفى الآخر جاءت بقرايبها ينصبوا لى محكمة ، حلفت عليها بالطلاق ماهي باقية فيه

– طيب ، وبتعيط ليه . . ؟

– غارت فى داهية ، وسابت لى العيال كلهم ، لازم أروح أجيبها أنا لن أرتاح إلا لو خلصت عليها . .

– طيب . . والعيال . .

– آخ يا ناري . . لو مافى بينى وبينها العيال ، دى ورتنى نجوم الضهر .

* * * * *

- فخرى يتعلق بقطار أبى قير ، القطار دواوين ومغلق الابواب ، إعتاد الذهاب مع أقرانه إلى صحراء سيدى بشر ، يصطادون العصافير ، يلتقطون الكابوريا وأم الخلول من شاطئ البحر ، ينصبون الفخاخ بالقرب من أكمة البوص الأخضر ، يعودون متعلقين بالابواب المغلقة ، بعضهم يستطيع ان يقفز بمهارة من القطار عند المزلقانات ويتباهون بالشعبطه والقفز ، وعندما يقبض رجال شرطة السكة الحديد على أحدهم ، لا يتركونه إلا إذا حضر ولى أمره ودفع الغرامة ، مابين محطة سيدى بشر وفيكتوريا - يد (الكمسارى) تمتد الى كتف فخرى من النافذه ، الهواء المغبر جعله يغمض عينيه ، يفاجئ بمن يمسك به من ياقته ، يقفز ، صياح بعض الركاب ، صرخ الكمسارى عندما رآه يطير ، يصطدم جسده بالسلك الذى يشد عامود الإشاره فيعيده إلى القطار . . العجلات . . لحظة خاطفه . . حادث هز مشاعر الجميع . . تخبط تحت العجلات المسرعة ، عثروا عليه ملغمطاً بالدماء ، نقلوه الى المستشفى الاميرى بين الحياه والموت ، جاء الخبر الحزين تقبله عبد القادر واجماً ، ثم بعد ذلك انهار ، همد على أحد المقاعد مشتت الذهن ، لم يعد (الحشيش) قادراً على ستر أوجاعه ، لم يقو على الذهاب إلى المستشفى لرؤية أبنه مبتور الزراع مفلوج الرأس ، ووجدت (حميده) لنفسها دوراً جديداً . أعدت الطعام ،وذهبت يومياً لزيارة أبن زوجها ، تمكث بجواره ساعات ، قدر لها الجيران هذا الصنيع ، استضافوا أولادها وأولاد زوجها ، تفرغت لرعاية (فخرى)

- (أنا عمته ، ان لم أكن أمه ففخرى أخو أولادى) استجاب عبد القادر لبعض طلباتها ، أعطاها نقوداً ، تحيرت من أين أتى بها ، وفى أى مكان كان يخبئها فى البداية - تمنعت فى أخذها ، واندهش عبد القادر -

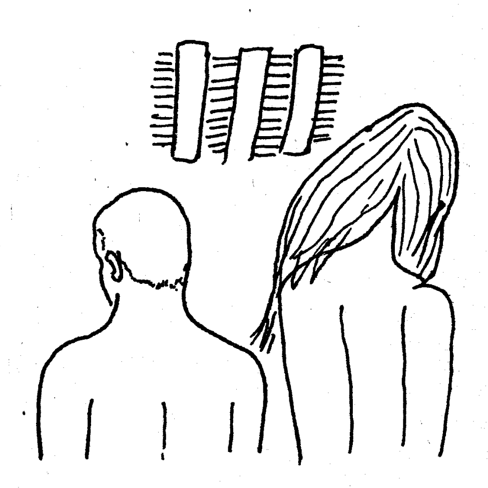
فقد كان يعرف عشقها للفلوس فى الواقع كانت فى هذه اللحظة بالذات لا تريد سوى أن تستمر فى الذهاب إلى المستشفى- بعد أن تعرفت على (زاهر التومرجى) ذلك الشاب الذى أنهى خدمته العسكرية حديثاً وعين بالمستشفى ، ولا تزال لهجته تسبح فى ترعة القرية فى دمنهور ، ربط بينهما ذلك الخيط الذى يجعل كل منهما يرى أنه يعرف الآخر من زمن بعيد ، وأن وجهه مألوف لديه ، شجعته (حميده) ، اذابت ببساطتها واندفاعها التلقائى واسلوبها فى الحديث المصحوب بحركة يديها وملامسة الذى تتحدث معه - خجله ، سنحت الفرص ، ركب معها ترام الرمل ، احضرت له طعام طبختة خصيصاً له (الأكل السوقى نشف مصارينك) أفضت إلى مسامعه بهمومها ، رام الوصال ، أطاعته وذهبت معه إلى غرفة السطوح ، فى شارع (العقصة) بالقرب من الظاهرية ، لم يستطيعا الهروب من مراقبة الجيران سوى مرتين وفى الثالثة وقف له صاحب السكن الارضى يسأله عن (الست) التى تأتى معه . قال انها (أخت غير شقيقة جاءت للعلاج وسافرت إلى العزبة . .)

وعادا يلتقيان فى حدائق الشلالات ، يتلامسان تحت جذوع الشجر ، كانت قد تجولت فى أحضانه العفيه ، خبرت دنيا غاصة بالبهجة ، تاقت إلى رؤيتها مرة أخرى ، أقترحت بيتها ، أزالت مخاوفه ، عندما عرضت عليه ما يمكن تدبيره (تسرب الاولاد كأنها فى الطريق إلى المستشفى ، وتبقى ، ويدخل ويختبئ تحت السلم ، تعطيه الإشارة فيصعد على أطراف أصابعه . .)

(الحجر الداير . .)

حالة التوهان ، جعلت عبد القادر ينسى أن زوجته ذهبت إلى

المستشفى وأنها أخبرته أنها ربما تذهب لزيارة شقيقتها فى (بحرى) ، أراد أن يحصل منها على بعض النقود ، كان قد وضع بين يديها إيراد المقهى بعد أن عطفت على ولده ورعته ، فتح باب السكن ، دخل ، سمع حركة وأصوات صادرة من حجرة النوم ، مشى منوماً ، فتح الباب كان لايزال منوماً عندما رأى (حميده) مع رجل على سريره في حالة استغراق تام . .



٣- التوقيع بالطباشير

أضع (قدرتى) فى معمل أختبار ، بداخل صندوق الفئران والأرانب فتصاب بالسل الرئوى ، تتهيج وتفاجئه الأزمه كلما استخدمت العقل ، ثم تسقط مغشياً عليها اذا لم اسعفها بالعلاج ، من حين لآخر أحصى (حبوب) العلاج فى جيبى ، اذا ما تناقصت (الحبوب) اذددت هلعاً ، فتعاودنى الأزمه ..)

عبر (ماركس) وصديقه (أنجلز) حوارى زعربانه ، قفزا برك المياه الآسنة داسا على قشر السمـــك والبرتقـال المعطن وورق الخص الأصفر ، ووصـــلا حتى بـاب (المجعره) الواطئ ، هبطا درجتين ، وأحنوا رؤسهما ودخلا إلى ركنتنا المطمئن ، ومع أنفاس حجارة المعسل وأكواب الشاى الاسود ، تحدث (ماركس) عن كتابه (رأس المال) قال طارق الذى تلقى تعليماً أزهرياً أوليا بمدرسة تحفيظ القرآن على محطة الظاهرية .

- يا جماعة هل الأخ ماركس يهودى ؟

(قال صلاح وكان طالباً بالسنة النهائية بكلية الآداب قسم الفلسفة)

- هو ألمانى ، لا تخلط بين هذا المفكر واسرائيل ..

وأخرج من جيبه تفويضاً ، ورقة مطوية كأوراق الفرامانات العثمانية فردها أمام السيد (ماركس) الذى داعب لحيته العريضة ونظر إلى صديقة (أنجليز) ، فإذا بالسيد أنجليز يستدير إليه ويومئ له بإيماء ارستقراطية ويخرج من كم حلته منديلاً موشى بالدانتيل يجفف به فوق وتحت شفتيه برقة ويهمس له بكلمات مقتضبـة .. على الفور أبتســم (ماركس) فى وجه

(صلاح) ثم فى وجوهنا وطلب قلماً . . أعطيناه نصف اصبع الطباشيرة التى يخطط بها (عم عبد القادر) على الجدران خطوطاً بعدد الطلبات التى تخرج من المقهى بالأجل ، وقع بها ماركس فابتهج صديقنا (صلاح) بهذا التفويض (أى شئ خاص بالماركسية نسأل عنه صلاح ، وأى معلومات من مكان آخر قد يشوبها الغش ، بعض باعة اللبن يخلطونه بالماء ، ونستمرأ ذلك ونتعود عليه حتى اننا لا نستطيع شرب اللبن غير المغشوش ، ودارت المناقشات ، ولم نفهم شيئاً - فى الواقع - من كتاب رأس المال ، وإن كنا لم نصرح بذلك فى حينه ، وعدنا نطرح - المادية الجدلية ، دور الكنيسة والاقطاع . والصفحات التى نقلت من المكتبة البريطانية عن نشؤ الصناعة والرد على (نيتشه وهيجل) - ماذا يعنى بأنه رأى نيتشه يقف على رأسه فجعله يقف على ساقيه ؟ ، تنبأ أن فى احشاء - الرأسمالية الجنين الذى سيقضى عليها ، واشاراته إلى ان الثورة ستقوم أولا فى الدول المتقدمة صناعياً - ألمانيا أو انجلترا . وإذا بالرفيق فلاديمير إيلتش لينين الروسى يصر على قيام الثورة البلشفيه دون المرور بالطور الرأسمالى - هل الثورة الروسية ماركسية ؟ أم لينينيه ؟

رفض ماركس إحتساء الشاى لوجع فى معدته - كعادة المفكرين - ورفض انجلز شربه لأنه لم يعتاد عليه قبل الخامسة كعادة الانجليز - وغادرا المقهى فى صحبه صديقنا صلاح ، أوصلهما بنفسه إلى محطة الظاهرية ، وأبلغنا أنه سيبقى فى المحطة حتى يتأكد من رحيلهما ، وأنه قد يأتى فيما بعد بمارتسى تونج ، وهوش منة ، والجينرال جياب قائد معركة ديان بيان فو - ولكننا رجيناه أن يتمهل قليلاً ويعطينا بعض الوقت حتى نرى ماذا حل بعم عبد القادر - فقد إجتاحت ركننا بالمقهى عاصفة

اسمها حميده . . .

* * * * *

هل ما رآه حلما . . مر الشاب الذى كان فى فراشه أمام المقهى ، رآه رأى العين ، بوجهه الأبيض المشرب بحمرة وشعره المجعد المائل إلى الصفرة ، كان غاضباً ثائراً من الداخل ، حديدى السطح ، تكتنفه رغبه عارمه فى أن يقوم ويعدو خلفه ويمسك به ، ولكن الجسد لا يتحرك ، أرادته لا تطاوعه ، فبقى يغلى . . . حميده ، أغلقت الباب وحصلت على المفتاح الذى تركه فى الباب الخارجي ، وانسلت خارجه ، زارت الجريح فى المستشفى ، وزارت شقيقتها فى بحرى ، وتقدمت بشكوى لزوج أختها ، من تصرفات الزوج الذى يتعاطى المخدرات (ما عدت أطيق ، فمنذ مأساة أبنه وقد أصابه الجنون) ثم طلبت من زوج أختها ان يأتى معها ويشوف لها حل . . ! !

كان عبد القادر جالساً بلا حراك عندما حضرت مع زوج شقيقتها ، وقفت بباب المقهى محتشمة فى الملاءة السوداء ، واليشمك على فمها ، عندما راها ، هاج عبد القادر كأنه جلس كل هذا الوقت يستعد لهذه اللحظة أخذ يهذى أمام زوج شقيقتها ورواد المقهى والجيران قال (فتحت الباب .) قالت (اسألوه بماذا فتح الباب) بحث عن المفتاح فلم يجده معه ، . . قال (رأيتها بعينى مع . .) قالت (شاهدين يا جماعة . . يطعنى فى شرفى ، هى حصلت) وإنخرطت فى البكاء . . رواد المقهى والجيران . . يضربون كفاً على كف متأسين على عقل الرجل الذى دمره المخدر – الله يخرب بيتك يا معلم عليوه ، الانجليز كانوا عاوزين يخربو الصين بالمخدر ، وانت بتخرب فى الحته ، فين ماوتس تونج – يرحله على تايوان – يا جماعة . .

الست حميده كسبت الجوله . .) بكت وهى تقول (الخدامين يأكلوا ويشربوا وفى اخر كل شهر يأخذوا ماهية ، أنا خدامة من غير أجر مبريّة تحت رجلين عياله ، وآخرة خدمة الغز علقة طلقونى ، لو أنا ست خاينة يطلقنى . .)

جاءت عربة الكارو حملت الأثاث ، تركت له الشقة فارغة يصفر فيها الريح ويعيط الأولاد ، أنهار جالساً بينهم ، يزفر بحرارة ، ينادى زوجته فردوس ، يتحدث معها ، وثمة عدد من النساء يغالبن البكاء . .

* * * * *

حرك جفونه ، فتح عينيه ، زرهما ، عادة يرى النافذة - وهو راقد ، وقطعة الورق المقوى ، كانت جزء من (كرتونه) نتيجة حائط عن معجون أسنان به صورة لوجه جميل ضاحك لامرأة حسناء ، أسنانها أكثر بياضا ، أستقرت الكرتونة أسفل المربع العلوى لضلفة النافذة الزجاج . . بديلا عن لوح زجاج ، كانت قد أطاحت زوجته به فى مطاردة فاشلة لقتل صرصار طائر ، قذفته بفرشاة البلاط ، حلق بعيداً ثم هبط خلف الدولاب وتحطم لوح الزجاج مرسلاً شرخاً طويلاً فى المربع الذى فوقه ، حدث ذلك منذ عام ، وضعت زوجته الكرتونة بصفة مؤقته لكن المشاغل والاهتمامات الأخرى حالت دون ان يتذكر - الزجاج المكسور ، واعتاد رؤية وجه السيدة الحسناء وأمسى حزء من ديكور غرفة النوم ، لا يتذكر هذا الزجاج المكسور إلا إذا زارتهم شقيقته بالذات ، لها أنتقاداتها اللاذعة التى تعكر صفو مزاج زوجته ، وبعد انصرافها - تنبه عليه (لابد من تركيب زجاج النافذة . . ضرورى ولا تحرجنى مع أهلك . .) - (إنشاء الله . .) مرات عديدة قام بأخذ المقاسات ، ولكن تشاء الظروف أن يكون محل الزجاج مغلق ، أو يذهب إليه فى موعد الغذاء ، أو يهمل الذهاب ، سقف مسكنه منخفض،

غير بعيد ، هذه الغرفة لها نافذة طويلة بها أسياخ حديد مبروم ، جثم على صدره ذلك الكابوس الذى تحرر منه بتلك الغفوة ، جلس ، وضع قدميه فى الحذاء ، قـرأ اللافتـه النحاسيـة (العقـيد . . .) طقم المكتب من رخام الألبستر ،إذا ضربت ، أيمكن أتناول قطعة منه للمقاومة ، قل لموتك ، قد تموت ولا يعرف أحد لك أرضاً ، لقد نشلوك من منزلك فجراً ولن يصدق أحد شهادة زوجة أختفى زوجها فى ظروف غامضه ، أقلام مشرعة كالخناجر شعر أن مثانته تكاد تنفجر ، بحث عن الحارس ، كان يتكلم . . ها هو قد نكس رأسه على صدره - أفتعل سعلة عالية ، رفع الحارس وجهه ونظر فى ساعته .

- الفجر   - الحمام

ملأ الحارس صدره بالهواء ، تمطى ، قام ، فتح الباب بالمفتاح ، عدة تكات ، خرج وأغلقه عدة تكات ، بعد عشر دقائق ، عدة تكات وأطل ، قال مع اشارة من يده :

- تعال يا أستاذ . . الأوامر لا أحد يرى الآخر . .

(الحارس مربع ، يكاد طوله يتساوى مع عرضه ، له أكتاف عريضة ويدان قصيرتان ، يرتدى حلة رمادية ، تحتها قميص مقلم بخطوط عريضة يضع حول رقبته كوفيه صوف ،أحياناً يلفها حول رأسه ويغلق بها أذنيه ، حذاؤه أسود ، ضخم ، لامع . أعتاد فى الوقت الذى يجلس بداخل الغرفة ان ينشغل بتلميعه ، يضع فى جيبه قطعة من القطيفة الزرقاء لتلميع الحزاء يطبقها بعناية كالمنديل وأحياناً يتف فيها ، يضعها فى جيبه ويطبطب عليها من الخارج حتى لا تنبعج ، كان حارسه - يتكلم عن المنزل الذى يبنيه فى صحراء الدخيله أشترى نصف قيراط بالتقسيط ، دفع الثمن مرتين ، مرة

لواضعي اليد من الأعراب ومرة لأحد الباشوات . ومشكلته أنه لا توجد ماء ، ويشترى براميل المياه لقضاء لوازم البيت وحتى يوفر لهما الماء - يستحم ويقضى حاجته فى العمل ، وعندما لا تأتى العربات بالماء يعود إلى منزله - بجزكن ماء بدلاً من الطعام - وعاد يشكو من سيطرة الأعراب على الأراضى ثم من يدعون بعد ذلك ملكيتها وكيف أنهم يفرضون عليه ، البناء وقاطع الاحجار ، والنجار . . وقتها نمت بين يديه . . كما أنام بين يدى الحلاق . . عند سماعى رتابة صوت المقص . .

* * * * *

بين الأرض والسقف ، ينتفخ كبالون ، يلتصق بالجدار ، بجانب صور نجوم السينما والحاصلين على أوسمة الحرب ، يرنو إلى الأسباب التى تجعل القلوب تنبض وعضلة الحجاب الحاجز تعلو وتنخفض دون موتور او كهرباء. يندهش أن السيد ماركس لم يغادر زعربانه ، وربما ركب القطار - أمام (صلاح) من باب - ثم هبط من الباب الآخر ، فقد قام بتوزيع عدد من التفويضات من خلف ظهر (صاحبنا) على بعض الأفندية والعمال النقابيين وكذلك أعطى (حسين المحامى) تفويضاً مماثلاً بالرغم أنه من شباب الوفد ، سألنى صاحبى طارق (إذا ما كان ماركس وقع بنفس الطباشيرة على التفويضات) اندهشت أكثر ان بعض (العمال) الفقراء قليلو التعليم أدعوا ايضاً أنهم ألتقوا بماركس وأقسموا أنه مقيم فى (البلد) ويوزع التفويضات لمن يطلبها ، ضايقنى أننى لم أفهم شيئا من (رأس المال) ، وإذا بأحد العمال البسطاء يجلس أمامنا - أنا وطارق - ويشرح لنا لغز الكتاب ويفيض فى شرح فائض القيمة وبعدها ، راح طارق الذى يتمتع بذاكرة جامعة يشرح - بالطباشير على سطح المنضدة القديم بالمقهى بالأرقام ، إذا

كان عدد العمال اثنين . . إذا كان عدد العمال أربعة . . إذا كان عدد العمال ثمانية . . هناك فائض لصاحب العمل من عمل كل عامل ، وكلما كثر عماله إزداد ثراؤه ، وعندما عدت إلى بيتي وجدت (طه حسين) جالساً على طرف السرير وسألته : معالي الباشا ، هل لديك فرمانا من ماركس ؟

أطرق مفكراً وقبل أن يجيب رفعت في وجهه كتابه (المعذبون في الأرض) وقلت :

- أنظر هذا كتابك ، ثم انك صاحب مشروع مجانية التعليم ، العلم كالماء والهواء ، الجريده ، وحزبك كان يعمل من أجل الملاك المصريين ، أصحاب المصلحة الحقيقية ، كيف طاقوا وجودك بينهم .

- أنا لم تكن قضيتي - المصريون الأغنياء ، بل كانت قضيتي المصريون الفقراء ، أنت لا تكون خطراً إلا إذا شكلت خطر حقيقي على مصالحهم ، ومشكلتي لم تكن إعادة توزيع الثروه ، مشكلتي كانت إنقشاع ظلام الجهل ، ويتهموني إنني قد توقفت عند حدود الشك ، رافعين ضدى على أسنة الرماح كتاب (الشعر الجاهلي) يتجاهلون خصوبة الثقافات ، ووحدة الفكر البشرى ، هم ميتافيزقيون ، وأنا أميل إلى إخضاع المادة موضع البحث لأعمال العقل مجرداً من الأهواء والرواسب أياً كانت ، دون أفكار مسبقة ، كذلك الاستفادة بالمنهج العلمي أياً كان مصدره . . .

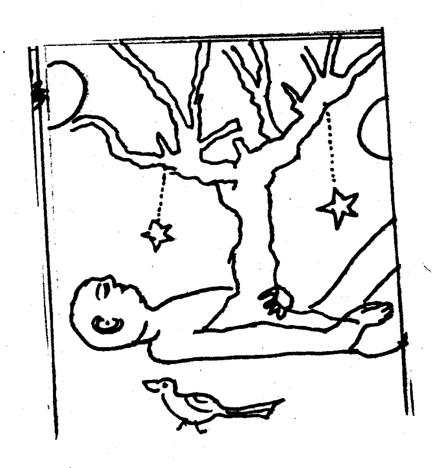
- معالي الباشا ، حديثك مضئ ، هل يمكن لمعاليك أن تأتي معي إلى المجعره.

ارتسم على وجهه النحيل دهشه ، وأخذ يردد مبتسماً . (مجعرة ، جعر) أتدرى معنى جعر ، إنه زئير الأسد العجوز الذى لا يملك حيلة ولا يقدر على الحركة ، يؤسفني أن صحتي لا تساعدني . .

- إذا ابقى معى هذه الليلة . .

* * * * *

رأى الجيران أن مسكن أبو فخرى أمسى عارياً وأولاده لا يجدون فرشاً أو غطاءً أتى بعضهم بالأكلمه والبطاطين والحصر ، نام الأولاد كما أتفق ، على الأرض وجلس أبو فخرى على طرف الفراش ، أسند ظهره إلى الجدار ، تذكر ولده الذى لم يزره منذ بتر زراعه ، شعر بالقهر ، نظر إلى الصغار ، استمع إلى تردد أنفاسهم ، توسد زراعه الواهنه ونام بعد حوار مع فردوس ، عاتبها وآخر ما سمعه منها (على عينى يا عبد القادر) .



٤- على حافة النهار

قبل أن تنسج الكلمات خيوطاً بين ظلام ليلى وضوء نهارى ، قبل أن تمد يدها بحنو وتأخذ بساعدى نحو كوه مشمسه ، سرت فى وادى الخوف وجلاً ، ترددت خطواتى هلعة ، خشيت أن أصادف العفاريت والجنيات وأمنا الغوله ، تعلقت بعباته الشاطر حسن ، ركعت على سجادة علاء الدين يحملها الهواء ، عبرت قمم الجبال التى يسكنها (الرخ) ، صحت - يحدونى الأمل - أفتح يا سمسم ، ثم أختبأت خلف الستائر أرقب (ست الحسن والجمال) وهى تتمطـــى فى مخدعهـا الحريرى ، رحلت على حد سيف (مسرور) الغاضب ، مشيت فى حاشية هارون الرشيد نجوب الأسواق ، نتوقف تحت النوافذ المغلقة ، نطرق الأبواب ونسأل عن الأحوال ننصت إلى حديث العجائز فى انتظار العائدين من الجهاد ، وعندما أعادتنى (الكلمات) إلى الأرض ، حشرتنى مع اخوتى وابى وامى فى المسكن الضيق ، الحارة الضيقة ، المصنع الذى - أعطيته طاقتى واحتفظت بروحى هائمه بعيداً عن (آلاته) ، يبحثون عنى لأقبض راتبى القليل ، يبحثون عنى ليفتشون جيوبى ، أفتح أذنى على قائمة الحساب والشجار بين والدىّ ، حاصل جمع قروش أبى العامل (بشركة الغزل) وقروشى لا يبعث فى صدر أمى سوى الضيق وعلي وجهها الغضب ، ولا يضع على لسانها سوى الشكوى ، فأدعوها إلى كنز على بابا والأربعين حرامى ، تشيبح بيدها قائله (اصحى يا ولدى ، حان موعد ذهابك إلى المصنع ، آسفة لا يوجد لك افطار اخوتك تعشو به ، خذ قرشين واشترى طعاماً ولما

ترجع أعملك بيضه) فى الطريق ، ابتاع صحيفة فى صدرها قصص علية القوم ورحلاتهم إلى أوربا ، وبداخلها أخبار الاضرابات والثورات ، أبحث عن الاصدارات الأدبية والفكرية الجديدة التى لا أقدر على اقتناؤها ، أقرأ الملخصات ، شطائر لا تسمن ولا تغنى من جوع . .

* * * * *

على طرف الفراش ، انكمش عبد القادر ، وضع ركبتيه فى صدره وساعديه حول رأسه ، تكور كجنين و . . . غادر الدنيا . . وعندما انتصف النهار (ولم يصرخ أحد) تطوعت جارة شابه باطلاق عدة صرخات . . تجمع أهل الحى ، وحضر طبيب الصحة . . ودفن في مشهد كئيب (ليس للضياع أسبابا ظاهرة ، له ملايين الاسباب التى لا توجز ، فى مقدمتها الأحزان الغارقة فى الأسى ، وحيداً بقى ، وحيداً رحل ، ربما كانت آخر زفرة قد اختلطت بالهواء الصاعد الى السحب الآتية من البحر في رحلتها إلى الجنوب - عابرة فوق زعربانه - الى مقابر أبو النور - فرغ القلب سكب أحزانه علي بلاط المسكين العارى ، وعلى الجدران الخشنة ، ترك علامات ، فقد كان متهالكاً ، كثيراً ما تساند بيديه على تلك الجدران)

قال صلاح : أخذ الشر وراح

لكن طارق - قدر أحزانى وأومأ إلى موافقاً على أن يحتل حيزاً من كراستى ، قال (عبد القادر ضحية ظروفه . . دعونا نناقش هذه الظروف)

قلت : من أين أتى صلاح - رهيف القلب ، بتلك القسوة فى الاحكام . . .

لكن صلاح كان يتعجل دعوتنا للاحتفاء بالرفيق لينين وعرض الظروف التى جعلت من (ستالين) حارسا للستار الحديدى . .)

قلت : التفويض موقع بالطباشير ، هل لا يزال سارياً . . ؟

* * * * *

يهز القاضى المرهق رأسه الكبيرة ، يتنحنح ويتلو الأحكام ، حكمت المحكمة حضورياً على المتهم . . أن يعيش في الشارع المزدحم ، في قلب السوق ، وفى الغرفة الضيقة ، ولا يجد مكاناً يجلس عليه ، إلا الكنبه ، فهو أيضاً سريره ، ولا يستطيع ان يفرد ساقه إلا وقد اصطدم بجسد أحد أخوته ليطلق فى وجهه صرخه ، اذا أكلوا بلعوا الطعام بدون مضغ وتهاجمه (الزغطه) وإذا رغب فى دعـوة صـديق لا يمانع والده ويحتـفى به إخـوته ليجلسـون على حجره وان يبقى لا يجد مكانا يقرأ فيـه ولاهدوء ليسمع أخبار الراديو . .

أطلق المتـهم صـرخـة ضـارعـة (حرام . . ظلم . . إن لله وإن إليه راجعون . . .)

يجمع القاضى أوراقه يطلق سراحى ، فلا أجد مكاناً أثيراً لى سوى (المجعره) اذا تخلف احد عن الحضور . . ذهبت إليـه معاتباً - ويعلم الله - أنه حكم ، أمتثل له لذا فقد أمسيت - رفيقاً للشاب فخرى الأكتع ، الذى تسلم ميراث والده حزمـة من الأطفـال ، وديون لتجـار المخدرات ، وزوجة غاضبة لديها طفلان ، تطالب بنصيب أولادها من دخل (المجعره) .

فى الحقيقة ، أعجبت بالولد فخرى . بعد ما أمسك بزمام الموقف ، هل الحادث هو الذى أعاده . . ؟ أم أن والده كان عقبة لظهور نباهته

اعـاد زوجة ابيـه (أنت فوق أنك زوجة أبى فأنت عمتى وأمنا ولكن ليس لنا غـيـرك . .) وأدار المقهى بحذق ابن السـوق ، اهتم بنظافتها وطلاتها . . ثم فوجئ - بالمعلم عليوه - يطالبه بمبلغ خمسمائه جنيه قيمة

دين فى رقبة والده الراحل ، ثمن حشيش وأفيون ، وجعله ينظر فى الدفاتر ويتحقق من خط يد أبيه وتوقيعه باستلام الطلبيه !

- يا معلم عليوه ، أنا يارب كما خلقتنى

- بع القهوه ، واشتريها ، وباقى فلوسى عوض على الله

- لكن القهوه ، مصدر رزقنا ، من أين نأكل يا معلم عليوه ؟ أنا فى رقبتى كوم لحم .

- لو إنك سمعت كلامى ستأكل الشهد

- يا معلم أنا عاجز ، لا أقدر على بيع المخدرات ومسئوليتها

- وهي عايزه فتاكه ، ذنبك علي جنبك ، فلوسنا على داير مليم)

وقع فخرى فى عرض معارفه ، أرقى على ركتنا ، فنحن ليل نهار نتحدث عن (الغلابه) وحقهم فى الحياه ، صببت غضبى على (عبد القادر) وكدت أندم على ما سجلته في أوراقى ، قال صاحبى طارق :

- تغضب على عبد القادر ، ولا تغضب على المعلم عليوه ، الذى يصلى خلف إمام المسجد مباشرة والناس تكاد تقبل يده عند السلام عليه ، وهم يعرفون انه يتاجر فى السموم والممنوعات ، وفلوسه حرام ، كما إنه شيخ منسر قديم . . دعنا نرى ماذا سنفعل لأخينا . . فخرى الأكتع . . !

* * * * *

على طرف (المعسكر) الذى رحل ، وخلف بقاياه ، براميل فارغه صدئه ، عجلات كاوتش قديمة هياكل سيارات الحرب العالمية الثانية ، يتواري خلف أكمه الرمال ينصب الفخاخ للطيور ، يسير صعوداً وهبوطاً على هذه التلال الصفراء ، يلفح وجهه هواء البحر ، يقترب من حد الموج ، يبلل قدميه ، وعندما يتراءى له (مسجد سيدى بشر) تلك الصحراء والبحر

والمسجد والمقابر يجلس أمامهم ليتلقى علوم الحياه التى لم يجدها فى مدرسة الشيخ اسماعيل ، فى ليلة واحدة كان قمره يدور عدة مرات قبل ان يندفع تحت عجلات القطار ، ويكتب له عمراً جديداً (فخرى . .) الذى تسلل إلى نفسى . . حكى قصته مع عليوه ، أمام حسين المحامى وشقيقة صلاح شريف ، وفى حضور العملاق رشدى عبد الدايم ، وطارق ، وكان الركن فى هذه الامسية يضم طه العادلى وفضل الشيشينى ومحمود عبد المنعم (الذى اطلق ذقنه وأزال شاربه بعد إنضمامة لشعبة الاخوان بباكوس وضمخ نفسه برائحه المسك) تحشرج صوت (فخرى) وبحث عن منديل فلم يجد فمسح عينيه بكم جلبابه . . وهو يقول :

– ماذا أفعل يا جماعـــة ، المعلم عليوه لا يتفاهـم معى ، ويصدّر لى صبيبـــه (قبارى) الغلس معنى ذلك أنه يقدم لى كارت ارهاب . .)

رفع (محمود عبد المنعم) يديه أمام وجهه وأخذ يدعو الله ان ينقذ عبده الفقير العاجز من هذا الطاغية ، ثم شرع فى تهوين الأمر وإن – الموضوع – مجرد تهديد ، قام (فضل الشيشينى) هندم ملابسه ومشط شعره واستأذن لسايق ارتباطه بموعد ، ربت على ظهر فخرى وقال (شد حيلك) سأل طه العادلى ان كان المرحوم والده قد خبأ فلوس الحشيش فى مكان ما وهل بحث عن الخبيئة فى المنزل أو المقهى ، . . (لو انك وجدتها أنصحك لا تعطيها له) .

تمنى فخرى لو انه وجد – الخبيئة لقدمها لعليوه كما هى ويا دار ما دخلك شر نظر حسين المحامى فى ساعته للمرة الرابعة وهو يتحدث عن قضايا الفصل التعسفي ومقالته الأخيرة التى نشرت فى الصحف معارضا لقانون الاصلاح الزراعى ومقترحاً نظام المزارعة الجماعية على ان يعين –

أصحابها الحقيقيون - أعضاءً فى مجلس إدارة المزرعة ، ثم تساءل كيف يترك أمثال (عليوه) يعيث فى الحى فساداً ، والناس يعرفون مصدر ثروته الحرام . ويتعاملون معه بكل احترام (يوم ما سيسقط القناع) .

وكأن هذه العبارة أعجبته ، فراح يتحدث عن الذين يرتدون الأقنعه وتطرق إلى رجال الاحزاب ، والحكومات والباشوات ،الذين يمالئون الثورة ، ثم قفز إلى لندن وباريس وواشنطون . .)

راح فخرى وهو يتابع المناقشـــات والكلمات المركبـــة التى لم تجـد قبولا لدى (محمود عبد المنعم) وبدأ السأم يتسلل إلى نفسه ، وبرغم أن (فخرى . .) لم يصل إلى حل لمشكلتـــه ولم يفهم علاقة الأقنعة بتهديد - قبارى الغلس له . . إلا انه اعلن (الطلبات على حسابى) وعندما رأى رشدى الحيره فى عينيه ربت على ظهره . . وقال بصوته العريض

- شوف (يا قرصان) لا تقلق . . اترك الموضوع على الله وانا سأخلصك منه . . !

* * * * *

فى هذه الليلة توهج القمر ، أغرق أسطح البيوت المتكاتفة فى شارع الكسائى بلون الفضة ، يتسلل ضوؤه عبر الازقة الضيقة التى تتفرع منه ، ترسم على الأرض الرطبة حدوداً للظلام بينما المقهى الصغير يلفظ (الشله) ينفرط عقدهم أمام الباب ، يصعد فخرى سلم مسكنه ذى الأنين ، يفتح الباب بهدوء ، يخلع جلبابه بيده الوحيده ، يلجأ إلى الأريكة فى الصالة ، يدير المسند ليصبح وساده ، على الجدار الاصفر ، صورة لحسناء فى لباس البحر ، وآية قرآنية وبرواز قديم ، قبل ان يفرد طوله يلمح باب غرفة (عمته) منفرجاً ، يقوم ليغلقه ، يراها قد نامت على السرير بجانب ولديها

وشقيقته الصغيرة ، ثلاثة من اخوته تحت السرير ذى العمدان ، وأخته (زينب) التى انهكت بالعمل على (النصبة) تنام على الكنبة المجاورة ، منتصف الليل ، السكون ، القلب المثقل بالوجع أى منهم جعله يطيل النظر فيما انحسر من (المرأه حميده) فى كل مرة كان يتساءل لماذا تترك الباب موارباً إلى الصالة التى ينام فيها ، ولماذا تبعثر ساقيها . حاسرة الثوب عن فخذيها ، لكنه يعود ويتأمل صورة (فوتوغرافية) فى اطار قديم على الجدارفى كل مرة كانت الصورة تبهت ، حتى انه لم يعد يرى التحذير الذى كان يطل من عين صاحبها ، وصوت محمود عبد المنعم داخله يطن فى أذنيه « ما أجتمع رجل وأمرأه إلا والشيطان ثالثهما »

حديثه الدائم معه عن - حميده المرأه - لفت نظره بشدة إليها ، وهو الذى كان يدور حولها كمركز للعائلة ، ويحدثها عن همومه . . وفلوس عليوه . .)

سألته فى الصباح . . ماذا فعل مع (أصحابه) وحسين المحامى

قال : كل خير ، تحدثوا عن الاقنعة ، لكن رشدى عبد الدايم الطويل العريض ، وعدنى خيراً ، والله يستطيع وحده ضرب المعلم عليوه وصبيانه .

قالت : اذا خلصوك من هذا المطب ، الواجب تعزم عليهم فى بيتك .

(رغبت فى رؤيتهم دفعة واحدة ، بعد حديث فخرى الطويل عنهم)

* * * * *

يتنزه ، يرتدى أفخر ثيابة ثم يزور القبور ، يتمتع بذلك السكون ورائحة الابدية يعود أكثر حيوية . لا يستطيعون بعد ذلك دفنه فى البنايات ذات الطوابق الأسمنتية والمصاعد ، والنوافذ والبلكونات ، والسلالم الرخام للسادة والسلالم الحديد الملتوية للخدم . .

- شرفت زعربانة يا أستاذ رشدى

- الله يشرف مقدارك يا أبو فراس

- قال رشدى عبد الدايم (قصتى ليس بها تفاصيل ، فهى سطر واحد ، يبدأ من أعلا وينزل إلى أسفل ينافس اللغة الصينية ، ولدت (ضاحكا) وعشت (ضاحكا) ومت أكثر (ضحكاً)مهلا لا تضحكون .؟ !



٥ - هالة من الغموض

مائدة (المجعره) مستديرة ، وإن كانت متهالكــة ، تشبــه مــائدة (الفرسان) أو البارونات الذى ليس لهم كبيراً ، رؤسهم متساوية ولم يبايعوا أحدهم ملكاً بعد ، فى الركن الكابى ، أتى (محمود عبد المنعم) مصطحباً - (ابن تيمية) ، جاء به ولا يزال فى رسغه آثار الاصفاد ، وعلى وجهه إرهاق سجن (السلطان الناصر) برغم عباءته الجديدة التى ابتاعها له الشيخ (حسن البنا) وفصلها الخياط (سيد قطب) فقد كان يبدو واهنا وهو يقدمه ويفرد له مكاناً فى المجعره . .

قال طارق : أين عبد المنعم أفندى مفتش ترام الرمل ليتيه فخراً بابنه محـمـود الذى كـان يشكو منه لطوب الأرض ، وبالكاد فلح في مـدارس محمد على الصناعية ليحصل على الدبلوم ، بعد دوخه ووساطات ، ها هو قد أطلق لحيته ، ويتحدث بالرقعة ، طالبت صديقى طارق بعدم التعليق بعد إكتمال الشمل وحضور حملة التفويضات ، القديم يسبح دائماً فى هاله من القداسة ، لذلك كان لوجود ابن تيميـه بيننا فى هذاالمساء ، رهبه ، أخذت بقلوبنا الغضة ، ولمحمود عبد المنعم دراية لا بأس بها فى الإلقاء ، مقلدا فحول الشعراء عندما يملئون أفواههم بالهواء وحلوقهم بالحروف ، ولديه الصوت العريض ، والاصرار على أن يحصل على مساحته كاملة من أى حديث وعلى الآخرين الدفاع عن مساحاتهم ، قدم لنا الشيخ وعصره بكلمات فخيمة ، تراكيبها تسربت من ثقوب ذاكرتي ، فقد كان يزاحمها ميل خاص إلى (حركة الجيش) التى تحولت أخبارها بالنسبة لى ولوالدى

بالذات إلى وجبه شهية أتناولها مع طعامى بنفس مفتوحه ، فقد عاش والدى ردحاً من حياته يهرب من (السخرة) فى الصعيد - أهله أو أغنياء النجع - ورأى بعينه نفوذ الكبار ، مما حدا به إلى الرحيل شمالاً ، حتى استقر عند شاطئ البحر المالح ، ومنذ حركة الدبابات فى الشوارع ، ومحاكمات الباشوات أهتم بنشره الأخبار ، وكان يستمع إلى تنقلات وخطب القادة . . بشغف . . ورأى فيها الخلاص . . .

* * * * *

إحتدمت المناقشات ، محمود عبد المنعم يتحدث عن أحوال القرن الثالث عشر وخلافة المسلمين ، وصلاح شريف يتحدث عن أحوال القرن العشرين وهيمنة الامبريالية العالمية ورأس المال ، (محمود . .) يطالب بالعودة إلى السلف ، وصلاح يطالب بالتقدم إلى المستقبل والقفز نحو القرن الواحد والعشرين . . محمود . . يدعو إلى دولة الشيوخ وان الاخلاق أساس المجتمع ، وصلاح يؤكد أن النظام الإقتصادى واعادة توزيع الثروة ، اساس المجتمع السليم . . . . كانت المسافة بين آراء محمود عبد المنعم وصلاح شريف . . ألف سنه . . شرب إبن تيمة عددا من أكواب الشاى الثقيل الذى كان فخرى الأكتع - يتحفه بها . . وأشك أن وفاته فى سجن السلطان الناصر ، كان بسبب شاى المجعره ، إلا أن صاحبى طارق كان يعتقد أن سبب الوفاه دخان المعسل والسجائر (جوىلا الويست - والهليود) التى أفسدت الهواء ، وبسبب هذه الوفاه مرض ابن عبد المنعم . . وتكلفنا بزيارته مع كيس برتقال ، رغم أنه كان يتحدث معنا بفتور ، قلنا ربما بسبب المرض . .

إلا أننى لم أنسى نظرات محمود عبد المنعم - عندما قال (صلاح

شريف) :

- اسف هذه (فاشية) تتلفع بعباءة الدين) . . لقد هزم التاريخ الصليبيون عندما تلفعوا بالدين . حينئذ إحتقن وجهه بنظرات نارية ، استشعرت بعدها ان الخطر يحوم حول رأس صلاح .

* * * * *

تضاعفت مخاوفي عندما أكد لى - صاحبى ظارق - من مخزون العلاقة بينه وبين محمود عبد المنعم ، أنه رأى (الامام) ممتعضاً لانه قد أتى بالمصحف والمسدس للحصول على المبايعة فإذا بالبعض يتمرد ، ومعنى أنه يصرح بأن (هذه زندقة) فقد أهدر دمه . . وذكرنى بما حدث مع (عبد المجيد حسن) قاتل النقراشي باشا فى الاربعينات حين قرر أنه قتل (النقراشي) لأنه كافر ، والنقراشي لم يقل إنها فاشية مثل - صلاح شريف ودر نفسه المسكين . . ! هل كان ركن المجعره ، خافت الضوء ، شبه المكان الذى يجلس فيه شخص مغطى بملاءه وأمامه مسدس ومصحف ، للحصول على العهد للجماعة ؟.

- هل أنت مستعد للتضحية بنفسك فى سبيل الدعوة الاسلامية وإعلاء كلمة الجماعة .

- نعم

- اذا امدد يدك لتبايعنى على كتاب (الفقه الخاص بنا) والمسدس سلاح العصر ، واقسم على عدم إفشاء اسرارنا (كجماعة) ، واقسم أيضا على الطاعة ، واعرف ان من يفشى اسرارنا ليس له منا سوى جزاء الموت ، كما أنك سوف تكون الطلقة فى صدور اعداء الدعوه . .)

صديقنا (صلاح) أصبح من الاعداء للدعوه وايضا من حملة

التفويضات الذى لا يملك سوى لسانه وبعض المعلومات المجموعة من الكتب وانا وطارق نقف وسطا ، يتنازعنا ما يقدمه صلاح بصفته صديقنا أولاً وما يقدمه محمود عبد المنعم أيضا بصفته صديقنا اللدود ، قلت لطارق : لا فائدة ، كتب علينا الرحيل ، أطرق صامتاً مده ، ثم أشار إلى أمتعته ، فقد إستعد بالفعل إلى رحلة فى الطيات ، وصحبته ، إلى مكتبة البلدية وانطلقنا من هناك إلى تجمع التتر فى وسط اسيا ، تحت قيادة قبائل المغول التى قادها جنكيز خان وعندما عبرت جحافلهم نهرى سيحون وجيحون وأشاعوا الدمار والخراب فى كل الأماكن التى حلوا بها ، ومن هناك مضى هو مع قوات المغول تحت قيادة هولاكو ، حتى هزيمتهم في (عين جالوت) وأنا واصلت الرحلة مترصداً الحملات الصليبية وإنهيار أماراتهم حتى دخول قوات صلاح الدين القدس بعد انتصاره فى موقعة حطين ، كنا نتبادل المواقع ، نبحر تارة ونقطع الفيافى تارة أخرى ، على الإبل أو سيراً على الأقدام .

شاهدنا حركة البشر مندفعة من قلب الهضبة الفارسية وجبال كردستان إلى الشام ، ومن الشام والجزيرة العربية فى موجات متجهه غرباً حتى اسوار القاهرة - ثم تمضى إلى المغرب ، وتقفز المضيق إلى الأندلس ، رأينا أن فى عصور القوة يكون طرفيها مصر والشام وأن فى عصور الضعف ، ينكفء كل قطر على نفسه ، توقفنا مشدوهين أمام عظمة ما رأيناه . . دونا كل البطولات . . وقررنا طبع لافتة نعلقها على صدورنا ندعو فيها صلاح شريف ومحمود عبد المنعم إلى هذه الرحلة ، حتى لو اضطررنا لشراء كتبها من جيوبنا ، لنؤكد لهما صحة الموقع الذى نقف فيه وهواؤه النقى . .

٦- الباب الذهبي

رشدى باسيليوس هو الذى أطلق على مقهى عبد القادر أسم (المجعره) ، أتى إلينا من كوم الشقافة . . أرتبط بنا وأرتبطنا به ، كأنه عاش اثنين وثلاثين سنة بدون أصدقاء ، حتى عثر على(صلاح شريف) فتصادقا ومنه عبر إلينا ، يعمل فى إحدى (شون) القطن فى ميناء البصل تعرف على (صلاح) عندما عمل (ظهورات) بنفس الشونة في الاجازة الصيفية يكتب على بالات القطن الرتبة والوزن والنوع بالانجليزية ، يحكى صلاح - كعادة الأصدقاء عن عمله الجديد ، وكان لديه استعداد فطرى لكتابة الروايات لذا فهو يهتم بالتفاصيل الدقيقة ، غرامه بالسياسة جار على ذلك الاستعداد ، ولكن بقى لديه الاسلوب المتواصل (يخلق من الحبة قبة) نستمع إلى حكاياته بشغف ، وإذا بزميله أمين الشونه رشدى عبد الدايم يقف فى بقعة الضوء ، ملفتا إنتباهنا إليه بشدة ، وعندما ركز الحديث عنه ، اعتقدنا أنه يستجمع خيوط شخصية بطل لرواية حديثة ، لابد وان يكون غريباً فى كل شئ (صرخنا : المنطق يا استاذ صلاح ! !)

قال عنه أنه تلقى تعليماً أولياً . . أجاد القراءة والكتابة ، ولكنه اصبح موسوعة فى التاريخ (القراءة توسع المدارك . . لا بأس) يرسم على الأوانى الفخار ويصنع تماثيل صغيرة (موهبة فطرية . . لا بأس) ولديه مكتبة عامرة بالكتب ، هوايته أيضاً جمع المجلدات والدوريات القديمة والكتب النادرة (سال لعابنا على رؤية المكتبة) بنى منزلا من طابقين على مساحة مائة وعشرون متراً ، وحده ، وأطلق عليه قلعة باسيليوس (بعض

الناس تجيد بعض الحرف - لابأس) صاحب فلسفة خاصة به تتلخص في ثلاث كلمات الجنس ، الأدب ، السياسة (تشوقنا لرؤيته) قال صلاح : في الشرنه التى يعمل بهامجموعة من البنات والسيدات يعملن فى جمع ما يتساقط من بالات القطن ، بعد ما وثق علاقته بي - دعانى (التدشين) صداقتنا - (كيف) فى الشونة دورة مياه خاصة بالسيدات ، المرحاض عربى ، وأمام المرحاض مباشرة يقع مكان منخفض يفصله ممر ضيق - أفرغ فيه مكانا - اذا ما دخلت (السيدة) وجلست فى المرحاض ، يمكن لمن يقف فى المنخفض أن يرى (حالها) مواجها للباب الذى يرتفع عن الأرض مسافة شبرين ، صحبنى قائلاً :(تعال أعرفك علي وجوههن الأخرى) خجلت من الفرجة ، صعد الدم إلى رأسى ، كدت أسبه ، لكنى فى الواقع لم أستطع منع نفسى من رؤية (تصرفاتهن) عندما يختلين بأنفسهن مطمئنات قال لى : هنا دراسة للنفس البشرية فى حالتها المطمئنة !

- متزوج ولك طفلان
- هذه نقرة وتلك أخرى
- سفالة وقلة زوق - ضحك عندما رآنى أواصل النظر والدراسة -

قال : لقد دخلت الان يا صاحبى من الباب الذهبى للصداق وأصبح بيننا (سر) وأرى إنك هفتان وتحتاج لبعض المقويات ، ما رأيك فى البنت عزيزة هى فلاحة بخيرها ولا تلح على الزواج - قلت - وبثينه ؟ ! - قال : لا تكن شحاذا وتطلب فطيراً . .

وبعدها كان يتحدث معى عن الالياذه والأوديسا وهوميروس . . ! ويمضغ الدخان . .

* * * * *

استمعت أنا وطارق مشدوهين . .

(كنا معا نبحث عن مكان نستظل به ، شمسنا تلقى بشواظها فوق رؤسنا ، بيوتنا ضيقة ، وعائلاتنا الفقيره كثيرة العدد ، لا نستطيع استقبال أمنياتنا (البسيطة) لذا فقد كانت حرارة الشمس والعراء يخشن وجوهنا ، ويجعد شعرنا ، تتبخر أمنياتنا الرهيفة ، فلا نغضب ونحن نلاحقها بنظرات الوداع ، قادرين على التصعلك الحر فوق الأرصفة ،وعلي مقاعد المحطات وكورنيش البحر ، نصبر على قراءة الكتب القديمة ، نضحك على النكات الفارغة ، كان الوقت أطول وكل شئ يسير متمهلاً)

لذا فقد كان - وجودنا فى مكتبة رشدى عبد الدايم - بين هذا الكم من المجلدات والدوريات بمثابة العثور على كنز ، استقبلنا بحرارة ، وتركنا نعبث بالرفوف ، نتصفح المجلات والكتب وقام بدور الدليل . . ثم هدهدنا بنظرة حانية متأسيه وقال لصلاح :

- ربيع وطارق (هفتانين)

تذكرنا (الوجوه الحقيقية) ضحكنا ، تفرس فى وجه صلاح وقال :

- لم أكن أعلم أن الصداقة بينكم قوية إلى هذا الحد . .

وجعل من نصف الامسية ، حديثاً عن الجنس ، حكى عن (صلاح) الذى حاول السباحة فى شبر ماء - قال صلاح خجلاً (منك لله) وعرفنا أن صالح قد دبر مع (عزيزة) اغتصابه ، قلدت بطل مسرح رمسيس وصحت فيه : (ياللعار ، أخرج من بيتى عليك اللعنه . .)

وفى نصف الليل الأخير ، أمضيناه نتحدث عن الأدب ، قدم لنا السجائر وأكتفى هو بمضغ الدخان مع حجر النطرون والبصق ، سأل (صلاح) ليؤكد صحة ما قاله عنه :

- كيف بنيت قلعة باسيليوس وحدك ، مبانى ونجاره ، ألم تستعن بأحد مطلقاً . . ؟

قال وهو يصب الشاى :

- وحدى كيف ؟ طبعا لابد من الاستعانة بأحد ، زوجتى أم محمد كانت تعمل تحت يدي عندما يتغيب الصبى المناول ، وأخذ يتحدث عن خبراته فى هذا المجال ، كبناء محترف ونجار حاذق . . .

* * * * *

(ولدت وفى فمي إصبعى السبابه ، كما ترون فإصبعى كبير ، لذا لم يجدوا مكانا للملعقة الحديد وعندما حاول أبى أن يجعلها ملعقة ذهب ، أصابنى بالتسمم والحمى ، ولما ألقوا بي فى صندوق القمامة ، تسمدت جذورى ، وصلب عودى ، وأينعت أعضائى ، صرت رجلاً مناكف ، مهدى (غربال) ثقوبه تسمح بدخول الحشرات إلى لفائفى ، تتسلل إلى لحمى الطرى فتحصننى ضد كل الأمراض . .)

(يتعلمون الحروف على ألواح الاردواز فى الكتاب وعلى الورق فى مبتديان محمد على ولكنى تعلمت كيف أكتب على الهواء فى خطوط مستقيمة لا تنزل لتشرب من البحر ، ضربنى شيخى علقة وقال : طالما أنت تكتب على الهواء جيداً ، لماذا لا تكتب على سطر وتترك سطراً ما هي الدنيا واسعة قدامك)

* * * * *

أعجبت بحديث رشدى عبد الدايم ، وعلى الرغم من براعة صلاح شريف الروائية فإن ما لمسناه بأنفسنا فاق خياله ، خاصة طريقته فى الحديث عن نفسه ، فيما بعد عندما توثقت علاقته بنا - ألح على ضرورة تدشين

صداقتنا ، نفر طارق وقال :

– حد الله . .

فقال لطارق بصوته العريض ضاغطاً على الحروف كعادته

– ليس لك فى الطيب نصيب يا أبن الرومى

وألتفت إلىّ – بتشجيع من صلاح . . وقال :

– وأنت يا أبا فراس ،أراك محروما من البروتين وتعانى من أنيميا عاطفية حاده فما رأيك فى ليلة سوداء . .

* * * * *

فى الحارة التى لم تكن تسمح بمرور العربات الكارو ، كان ميدانى الفسيح ، أعدو من عتبة باب إلى عتبة أخرى ، وعندما خرجت إلى الساحة ، ضللت طريق العودة ، فخرج منادياً ينادى – عيل تائه يا أولاد الحلال ، أعتدت أن أجلب الشارع والساحة إلى غرفتى ، فإذا بالسيارات والمارة يملأون مسكننا ولا أجد مكاناً خالياً إلا فوق الدولاب أهبط منه بالمظله كلما قرصنى الجوع ، أو نهرتنى أمى ، وكم من مرة لم تفتح مظلتى وأنا أقفز فيلتوى كاحلى أو تكسر ساقى ، أضطر والدى وقد أصبحت (خربا) ان يبيعنى فى سوق العطارين مع الأشياء القديمة ، من يشترى طفلاً هوايته جمع أزرار الحلل العسكرية ، وتذاكر القطارات ، ونوي المشمش وغطاءات المياه الغازية . . . ؟

بقيت مع الأشياء القديمة المهملة ، متأهباً ، حتى سن الخامسة عشر ، وجاء (الخواجه تدرى) ووافق على شراءى لأصبح صبياً فى (المطبعة) أشتغل من الثامنة صباحاً حتى الثامنة مساءاً وأعود منهوك القوى . يسلمنى اليوم إلى الاسبوع والاسبوع إلى الشهر – بدون وصل استلام ،

أفرح بأيام الاجازات والعطلات الرسمية وأحزن عند إنتهاء الأعياد والمواسم سلمت نفسى للأحلام التى وجدتها باقية فى رأسى ثم تبين أنها تشبه ما فى الكتب فامتزجنا ، سرقت منى سنوانى الذهبية ، عبرت فترة المراهقة عدواً ، هبطت على خندق المسئولية مرغماً ، اعتقدت انى ولدت رجلاً ، ولم ادر انه طريق مؤجل السير فيه ولابد وأن نمشيه يوماً . . بمراحلة المختلفة حتى نصل . .)

عند سماعى حديث رشدى عبد الدايم عن تدشين صداقتنا - ربطت بين هذه العبارة وعزيزة الشونة والوجوه الحقيقية وفحولته ومغامرات صلاح شريف ، إرتجف بدنى ، لذه المغامرة ، توتر مقدمات الرحلة

قلت لرشدى : جنس ، لماذا لا يكون الأدب والسياسة . .

قال مازحاً : ستدخل إلى الأدب كامل الأهليه . .

صعدت إلى أعلا الدولاب ، أختبأت فى الحقائب القديمة ، حتى يفرغ المكان مما اذدحم به من (آهات) ولا أدرى لماذا ترسب فى أعـماقى رؤية رشدى مخنثاً ، يرتدى ملابس النساء ليلاً ويسير بتلكأ تحت المصابيح على الرصيف . .

(وأنا صبى . . أحمل كتبى الثقيلة ذهابا وجيئة من المدرسة ، أكتشفت أنها ليست كتبى وان ما بها ليس له علاقة بى ، ضربنى المعلم مرات لاقناعى ان الواجبات التى كتبتها هى واجباتى وان كتب (الوزارة) هى كتبى . . قرأت الشعر فلم أفهمه ، قرأت الآيات فلم أدرك معناها ، ومن شدة الضرب والتقريع ، حفظتها (صم) فتفاخر (المعلمين) بمهارتى فى الحفظ ، وكلما حضر المفتش أوقفونى وقالوا (سمع) ولما كبرت عرفت أن من فضل الله ، اننا ننسى الأشياء المحزنة . . إلا إنه من بين ظلام النسيان

كانت تتلألأ . . مدرسة الرسم ، شابة حسناء جميلة وكانت متزوجة حديثاً
كانت نجمتى التى تضوى فى ليلي ، أستمرت تلازمنى وتهمس لى بصوت
عذب سنوات - انتظرنى إنى قادمة ، وكنت أنتظرها دائما قبل نومى -
وفى مرحلة الشباب رأيتها ، مائلة أمامى ، تصغرنى بثلاثة أعوام ، أبنة
مدرس العربى - كانت طالبة بمدرسة المعلمات الثانوية ، يد قوية حملتنى
إلى أول الطريق ، أعادتنى إلى بداية فترتى المنسيه ، امتزجت عواطفى
بتراب الطريق الذى قفزته ، نفضت صفحة نفسي من غبارها ، فوجدت
قصائد الغزل ، وشعر المهجر ، وخفت شياطينى تربت على فؤادى ، فتنفجر
بداخلى براكين صغيرة من الأشواق . .

* * * * *

يحلو لصلاح شريف ورشدى عبد الدايم - أغاظتى - ومعاكستى
بالحديث عن إله الجنس باسيليوس ، كنت أقول وأنا مسحوق من الداخل
(ايه يعنى . . طظ . .) .

وكان رشدى ، يحدجنى بنظراته الثاقبة طويلاً ؛ ثم يبتسم ويتحدث
في مواضيع أخرى كأنه يتوعدني بالذات .

وفى بعض الأمسيات (الجدباء) يجعلنى مادة للتسلية ، يبدأ ، وإذا
بهم جميعاً يعزفون ، كنت مضطراً أتناول آلتى وأعزف فى الجوقة اللحن
الذى يختارونه ، فتنمو بعض الطرائف مصحوبه بالضحكات الفارغة التى
لا تنسى ، وعندما أصير وحدى ، يملأون رأسى صخباً ومن بين الصاخبين ،
يبدو صوت - طه العادلى ، وفضل الشيشينى ، له سن خنجر يداعب
أحشائى . . أتعجب ، ان أصبح مادة تسلية ، لمن هم مادتى ، فرخّى
اللذان يتقافزان فى باحتى ، عندما كانا يستشعران خطراً أرفع لهما جناحَى

فيلوزان بدفء صدرى .

كان - صلاح ورشدى وطارق بالنسبة لهما ديوكاً شرسة . .

كنت امثل بهما ركنا ، وأحياناً أجعل من أحدهما (سبوره) أحل عليها المسائل المتشابكة ، أزحتهما بطول زراعى . . وأنا فى أشد الحاجة إليهما . . ويوم عادا إلى . . فرحت - كأب عاد إليه ابنه العاص . .

فى لقائى الأول برشدى ، بدا لى عملاقاً فى طول العقاد ، لو أن ثمة مخرج مسرحى لوقع اختياره عليه لأداء دور (عنتر) بعد دهن وجهه القمحى المشرب بحمرة باللون الأسود ، ووضع باروكه شعر مجعد على رأسه التى كانت كالحد بين الصحراء وأرض الوادى ، حيث تنبت النباتات خفيفة متفرقة ، له عينان واسعتان ناعستان أحياناً ، ثاقبتان عندما تدور فى ذهنه فكره ويطاردها ببؤبؤ عينيه ، أنف رومانى تحت شفتين قوقازيتين ، إلا إنه إذاجلس بيننا بدا عاديا وفى طولنا برغم رأسة الكبيره وكتفيه المستعارين من جندى (اسبرطى) ويعود عملاقاً إذا ما تحدث فى التاريخ القديم والفلسفة وعلم الجمال ، وينكمش إلى عامل شونه ، إذا ما تحدث فى (الجنس) يتضاءل حتى يصير شاباً مراهقا غير متوازن الأعضاء ، لديه تعبيراته الخاصة التى تتسلل إلى رؤسنا متخفيه لتسكن فترة ثم تظهر فى أحاديثنا ، كنت أحاول مطاردتها واقتناصها - كالبراغيث - لأتخلص منها إلا أنها كانت تندمج فى اسلوبى حتى يتعزز الفصل بينها وبين (براغيتى) لديه دائماً شيئاً - شيقاً - يبعث فينا الدهشة ، رغم إطلاعنا الواسع نوعاً

* * * * *

(نعيش ثنائية حضارية ، لم نطور أساليبنامنذ عصر الرشيد الماسى ، لك حضاره مادية وروحية كاملة ، إلا إننا ابتعدنا عن ركوبها وتقاعسنا ،

تسربت إلى هناك عادت إلينا فى صورة مبتكرة ، هل نعزي الفضل لهم ؟

أقول على الفور:

- هى حضارتنا ، عادت إلينا

يضحك من انفه ، يسخر من (الاكليشهات)

- طيب يا خويا ، أفادكم الله . .

كل الاحاديث تؤدى إلى (السياسة) عندما يمسك أحدهم بخيط الكلام ويمشى رافده إلى هذا النهر ، يتوقف رشدى عبد الدايم بغتة ، تضطرم مقلتاه ينظر هنا وهناك ، كأنه يبحث عن مرفأ بعيد يلوز به ، يبقى ساهما ، ثم يتقمص الدور الآخر الذى يجيده ، دور المستمع باهتمام ، إلا انى كنت أشعر به . . انه ذهب بعيداً . . برغم حضورة الدائم - عندما يجمع أشرعته . . أطلق مدافعي :

(أبجديتي الاشخاص والاحداث فى ظرف المكان والزمان ، لذا فقد كانت واجباتى لا تكتب فى البيت أمام المصباح وعلى المنضده ، بل كانت فى المقهى والشارع وطرقات المصنع ، لذلك فقد كانت (اختباراتى) لا تقدر وكانت درجاتى متدنيه ، (صفر فى الإنشاء) لا أحزن كثيراً ، فهم يريدون كتابه بالقلم وأنا لا أملك سوى (أزميل) وشرايين دم وأحداث لم تستقر بعد لذلك آثرت اشاعة جو من المرح حولى فأسقطونى فى اختبار (الملتزمين بالمنهج)

قلت لهم . .

حتى الصلاه تتضمن ركنا عملياً ، حركة الوضوء والتطهر وحركات القيام والركوع والسجود . لماذا تطلبون السكون التام ، تحاسبوننى على هجس الخاطر ، لست نسخة كربونية . . ولن أكون . .)

٧- صفقه مع الحياه

بعد منتصف الليل ، المحقق قد أصابه الوهن ، دفع مقعده إلى الخلف ومشى حول المكتب بعيداً عن (المتهم) ، ووقف عند النافذه يتطلع فى الظلام . .

« آسف ، كنت مشغولاً بكنس ظلام الليل من فوق الجدران وأسطح العمارات وأرض الشوارع والحارات والميادين ، مشغولاً بنزح القازورات من (تفاتيش) الرؤوس ، إن ما يدهشنى حقاً ، ان الليل عالق بالارض كالحبر الجاف والقازورات والنفايات لا تفرغ حتى تمتلئ ، أتعب ، أستريح لألتقط أنفاسى ، قد أفكر لو أنى وصلت إلى المنبع وأغلقته ، كيف يتوهج حل (المسأله) فجأة وأنا فى هذا الإرهاق المضنى ، مثاليه لا تقدم ولا تؤخر ، لكنها كانت كل ما أملك من أدوات ، لم أيأس ، شرعت فى البحث عن المنبع ، كانت (المشكلة) إنى اقيم بداخل المصب ، ولا أعرف أين تختفى (الينابيع) واين يختفى السادة والسيدات الذين يعلنون - من باب الدعاية والمفاخرة عن مثبت الليل الطويل الذى لا يتأثر بأى ضوء ، قد يغنون مبتهجين ويرقصون ، لأن الفجر لا يعرف طريقه إلى أمسنا ، وكمن ينزح البحر بلا كلل ، كنت شاباً متوهجاً بالحماس ، أعتقدت أنه بالامكان ان نزرع مكان البحر فواكهاً وأزهاراً ، لم تكتنفنى التعاسة إلا عندما ربت (حكيم) على ظهرى وبدون كلام أشار إلى - الصحراء الخالية خلفى ، أدركت على الفور غبائى فى وقت لم يعد مناسباً . . »

التفت إلىّ ، ملأ صدره بالهواء ، ثم زفره دمعه واحدة ، قال وهو

يجمع أوراقه :

- سأدعك الأن ، أنت لم تتحدث عن ، طه العادلى وفضل الشيشيني . . إلى الغد

* * * * *

طه العادلى

عقد صفقة مع الحياة ، كان هو فيها كوالده التاجر ، والحياة (المستهلك) الذى يقع عليه دفع هامش الربح الكبير ، بعد أن مر من النفق المظلم الذى كان يطبق على أنفاسه ، وجد فى الناحية الأخرى ، المال والبزخ الذى يرتع فيه على هواه ، كان والده - وبطاقات سكان زعربانة مربوطة علي محله - قد بدأ تجارته - خيمه صغيرة بعامود وحيد ، وبنهاية الحرب - استبدل الخيمة بفناء ومغازه ، صار يتسع حتى أصبح تاجر الجملة الكبير إلا أن اتساع تجارته وتداخل محلاته وانشاؤه بيت من أربعة طوابق بشارع (لافيزون) مقر الفئات الوسطى ، المجاور لمنطقة زعربانه لم يؤثر على هيئته الخارجية ، يرتدى نفس الجلباب البلدى المتسخ على الصدر ، ويضع نفس العمامة الصغيرة السكندرية المعلقة خلف الرأس ، وفى قدميه البلغة الصفراء الباهتة - يحلو له أن يقوم بالعمل بيديه ، ولا يطلب من معاونيه إلا إدخال وإخراج البضائع ثم الإبتعاد عن بنك النقود ، أشتهر بين التجار الصغار والعملاء بأن لسانه يقطر عسلاً ، لكنه عندما يأتى بضلف المحلات ويسقط العمال أزرع الحديد الطويلة على الأبواب ، ويطمئن بجذب الأقفال عدة مرات متأهباً للعودة ، لا ينسى أن يترك لسانه الحلو بداخل درج النقود يعود مصطحبا لساناً آخر يسيل منه المر حنظلاً ، ليصبه على رأس (عايده) أبنة عمه وزوجته ، فينسال عذابه على وجهها ويستقر فى عينيها نظرات

ميته ، لايكف عن مناكفتها ، يبحث عن النتوءات ليجعل منها حرابا يودعها في جنباتها ، ساعات القيلوله وفى المساء ، وعندما كان يفيض بها الكيل ، تصرخ ، يجد الفرصة مناسبة لينهال عليها ضرباً ، فيندفع بينهما الطفل (طه) ، يرتمى فى أحضانها ، فيكف العادلى مرغماً ، يحاول ابعاده ، لكنها تتمسك به ساتراً يحول بينها وبين سيل الكراهيه المتدفق . . ليتوقف عند ظهر الفتى ، يصيبها ما يصيبها منه ؛ تلوذ بأحد الأركان ولا تغادر البيت ولما كبر (طه) . تحسس الأسباب ، ووقف حائراً بين أمه وأبيه . لا يقدر على تحديد موقفه بينهما ، هل يميل إلى والده الذى كان يرى أنه قد أفنى سنوات عمره فى كد وعمل متواصل ليصنع لهم رغد العيش ؟ ، أم يميل إلى أمه التى تحملت كل هذه السنوات من أجله ؟ وهو لا يدرى سبباً لأن يكون والده خارج المنزل التاجر الطيب الودود ، وفى المنزل الزوج الشرس ، شب (طه) عن الطوق حتى وصل إلى النقطة التى جعلت (عمته) تتحدث معه بشئ من الوضوح . .

– أبوك يا طه ، تحمل الكثير ، أحب (عايده) لكن (عايده) لم تحبه يوماً

– أمى تقوم بواجبها حياله ، أرى ذلك بعينى . .

– ذلك كهن نسوان ، أنت صغير لا تدرى عن هذا شيئاً

– يا عمتى ، أبى الذى يختلق أسباباً للإعتداء عليها

–كان لابد وان يكسر رقبتها ، هى ليست زوجته فقط ، هى أبنه عمه أيضاً . . !

* * * * *

بصفته ابن العم ، وطبقاً للتقاليد ، هوالذى فاز بها ، وضعها فى

بيته بين الأثاث ، مشغولاً في بداية حياته بتجارته ، سك عليها الابواب فكانت معه بجسدها ، وقلبها في مكان آخر ، كانت قد تعلقت بالشاب الذى تقدم لخطبتها قبله وكلمها وكلمته ، (جلال) الموظف بوزارة المعارف ، وعندما شعر (العادلى) أن (عايدة) جسد بلا روح ، داهنها وهو يبحث عن المكان الذى تهيم فيه ، كان همه أن يعرف من هو ، وفى حالة من حالات التجلى وعد بعتقها إذا ما صارحته بحقيقة مشاعرها (أنا ابن عمك وأريد أن أطمئن على مستقبلك ، والزواج قسمة ونصيب) دلته على حقيقة مشاعرها ، وأن قلبها مع (جلال) وإن شعورها نحوه هو شعور الأخت نحو أخيها ، غالى (العادلى) فى تقدير التعويضات ، بغرض أن يعجز (الموظف) ، كانت المفاجأة أن (جلال) أبدى أستعداداً لدفع طلبات العادلى بالكامل وفوراً ، فعاد (التاجر) يضيف أشياء أخرى نسيها .

فقدقدر للعواطف ثمناً باهظا ، بعد أن تبين له أن (جلال) له إرث ويستطيع دفع كل ما يطلبه ، وقبل إتمام الصفقة ، وعايده تشرع فى كسر القيد ، كنت أنت يا(طه) قبضه من اللحم بداخل أحشائها ، وجودك حال دون اتمام الصفقة ، وجد - العادلى - سبباً لأن يسد باب الخروج عليها . . ولم يكن أمامها إلا طاقة الأحزان ، فخطت نحوها ، لم يكن فى حياتها شيئاً مضيئاً سواك ، وتحملت قسوته ، وبإتساع تجارته وازدياد أمواله ، كان محط أنظار الصائدات ، تزوج من (حورية) أنفوشيه لا يفصلها عن أوربا سوى البحر ، أرمله لها ثروة وشقة (بجليم) ، رفض أن يذهب إلى هناك ، أتى بها إلى شارع لافيزون إستأجر الفيلا من الخواجه الأرملى ، التى يمكن لوالدتك أن تراها من بلكون الدور الثالث ، كان يرغب فى بث الغيره فى نفسها ، ولكنها لم تهتم إلا بك ، فإنقلب إلى التقطير عليها ،

لم تشك أو تتبرم إلا عندما ضيق الخناق عليك وأراد أن تكتفى بالابتدائية

-ابنك كبر فليأتى إلى المحل يشتغل بأجر بدلاً من أحد العمال الذين ينهبونى فى الخفاء

إلا أنها كانت تود أن تراك موظفاً بوزارة المعارف !

- آه . . تودين ان يكون مثل (جلال)

استمرت لعبة القط والفأر بينهما

ويلا سابق انذار ، ودعت (عايده)الحياه ، فأنفجر فى العادلى بركان من العواطف المكبوته ، كشف عن حبه الرقيق الذى اختفى تحت ركام من الأفعال وردودها ، ترك المرأه التى كانت تريده عكازاً تجوب به آفاق اللهو وهو كان لا يزال التاجر الذى يجد لذته فى وجوده بين أجوله ولفائف وصناديق بضاعته وعملائه ، فوافق على ان تستكمل تعليمك حتى حصلت على دبلوم التجارة ، ووافق على أن يستخدم نقوده ، حتى وجد لك وظيفة فى مصلحة الجمارك - ها أنا قد حققت رغبتك يا عايده - وأمسى لكل من طه والعادلى حياته الخاصة وعالمه ، قبل وفاه العادلى ، كان يحلو له أن يتحدث مع طه عن (أمه) لكن طه . . كان قد عقد صفقته ، واصبح له من يحاورهم ، وكان هذا يحول بينه وبين سماع أبيه ، في الامسيات التى يعانده فيها النوم ، يتذكرها ، يبوح لطه بالأسباب ، كأنه يطلب منه الصفح يوجه حديثاً طويلاً ، وطه يرجو الافلات من هذا الواجب الثقيل . .

بخروجه من النفق . . بما ورثة من ثروة ، عثر على صديقة فضل الشيشينى أبرز من (بصم) معه على صفقة الانس - فى شقة مفروشة بكليوباترا . . نخاس ، لديه طابور من الرقيق ، (بارمان) لديه خبره (بكوكتيل) النشوه ، ومعاً . . ركبا سفينة اللذه ،(فضل) قبطانها ، وطه

بحارها الوحيد . .

* * * * *

فضل الشيشينى

تلقى تعليمه فى كلية فيكتوريا ، وبصعوبه حصل علي ما يعادل (البكالوريا) لإنشغاله بأصدقائه بنادى اسبورتنج وشاطئ استانلى ، مكتب والده المحامى مدير أعمال (الباشا) الذى يمتلك ألف فدان بالغربية ، وعمارات بالقاهرة والاسكندرية وأسهم وسندات بشركات بنك مصر والشركات الاجنبية .

وبقيام الثورة ، وتفضيل بعض أصحاب الأراضى الإقامة فى أوربا حتى تنجلى الأمور ، فقد أوكل أكثر من (بيت) للشيشينى بك ادارة أملاكهم ، أو بمعنى أدق - توزيع أراضيهم على أقاربهم بشكل قانونى ، تفادياً لتطبيقات قانون الاصلاح الزراعى ، وكان خبيراً فى عمليات المقاصه وترحيل الأموال من الداخل إلى الخارج مستخدماً عدداً كبيراً من أصدقائه اليهود وخبراتهم فى مجال المال والاعمال ، يقوم ببيع العقارات والأراضى ويؤسس معهم شركات ، يرحل الأموال لشراء الآلات ، ثم يرجئ تنفيذ التوريدات لحين إستقرار الأوضاع ، مقابل نسبة جعلته يكون ثروة لا بأس بها ، نصفها فى الخارج ونصفها بالداخل ، تزوج من أبنة تاجر أخشاب بباكوس ، عندما كان طالباً بكلية الحقوق ، بيت عائلتها على أطراف حى زعربانه على أول (المنزلاية) ، كان فضل يقيم عندهم وهو طالب مجاوراً لبيت العادلى تعرف على طه صغيراً ، ثم افترقا ، وعادا والتقيا مصادفة ، شباباً لا يرى من طاقة العمر إلا ذاته ، إلا أن انقلاب فضل على والده ، وقد رآه يقوم ببعض الأعمال التى زلزلت كيانه ، جعله هذا يقترب من

(زعربانه) دون ان يدرى سبب نفوره من مجتمعه الذى حاول أبوه ان ينسجه فيه ، أصبح أحد المعجبين بالثوره وضباطها نكاية فى والده وباشواته وبكواته ، يعلن ذلك متعمداً عندما يسمعهم يرسلون النقد ضد حركة الجيش يضايقة ان والده يتعيش من فضلاتهم وفى أمكانه أن يكون فى مستواهم وقد حانت الفرصة ، لم يتمالك نفسه ، أذ سمع نقداً جارحاً ضد عبد الناصر يتصدى لأحد الباشوات الكبار في حده (معالى الباشا ، ثورة يوليو قامت أثر حقبة سياسية امتدت ثلاثين عاماً من النفاق الليبرالى)

(معالى الباشا ، الدستور الذى تتحدث عنه سيادتكم ولد ولادة غير شرعية وتدخل المندوب السامى أكثر من مرة لتعديله وحذف كثيراً من المواد منه)

بينما يحاول والده إسكاته ، لكن الباشا يريد أن يؤكد ديمقراطيته ويطلب منه الاستمرار فى الحديث .

(معالى الباشا ، حكومة سعد باشا فى أول انتخابات ديمقراطية فى مصر ، أقالها المندوب السامى البريطانى فى مظاهرة عسكرية ، وهى لم تدم أكثر من عام واحد وأجريت انتخابات جديدة بعد شهرين ، فاز حزب الأغلبيه ، بعدها تقرر حل البرلمان بعد تسع ساعات) وهى نفس حكومة ٤فبراير ١٩٤٢ التى جاء بها الانجليز ، معالى الباشا ، كان قيام الثورة محتوماً . . بردون)

وغادر المجلس فجأة كما أقتحمه فجأة ، احتقن وجه الباشا العجوز ونفخ البكوات الهواء ضيقاً ، فأخذ والده يعتذر ويصلح ما أفسده أبنه فى مزاج الباشا الذى اطرق طويلاً ثم قال :

- شيشينى أفندى ، كلام أبنك تمام

وسأل الباشا من حوله :

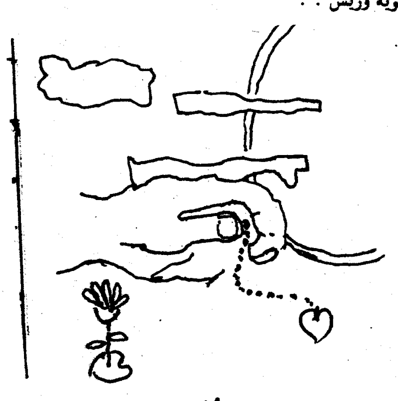
- هل أدخلوا مادة السياسة فى كلية فيكتوريا ؟ غريبه هذا الكلام كبير قوى يا شيشينى أفندى .

فرك الشيشينى يديه وأحنى رأسه ثم قال :

- تلميذ معاليك ، تعلمنا السياسة على يديك يا معالى الباشا

فأبتسم الباشا ، فصفى الجو وتناسى الأمر . .

كان فضل لا يقرأ فى السياسة ، ولكنه من الذكاء إذا سمع شيئاً حفظه ، وكان هذا جزءاً مما سمعه فى لقاء من لقاءات المجعرة ، كنت أضمه مع طه العادلى إلى صدرى ، إذ وجدتهما غريقين على شاطئ نزواتهما ، لم أتورع عن منحهما قبلة الحياة ، برغم أعتراض صلاح شريف وطارق فى بداية الأمر ، صنعت لهما الوجبات الخفيفة الجذابة ، حتى جرى الدم فى عروقهما وأدركا ما كانا فيه من خطر الاستنزاف ، بعد فترة نقاهة ، صار لهما أقدام قوية وريش . .



٨- التمثيلية

في قلب سوق زعربانه ، ينزوي المسجد بمئذنته القصيرة ، التي تطل على الباعة والدكاكين في النهار ، وترفع قامتها الغليظة في المساء ، في الصف الأول خلف الإمام المحدب الظهر ، كان (رشدي عبد الدايم) يصلي صلاة المغرب ، تعمد أن يكون بحذاء (المعلم عليوه) ما كادت الصلاة تفرغ وعليوه يسلم يمنه ويسرة حتى مد له (رشدي) يده الضخمة ، احتوى كف عليوه بقوه ، نظر في عينيه نظرته المعبره ، ضمنها معنى معيناً ، وقال بصوته العميق . .

- حرماً يا معلم عليوه

لم يترك يده ، كما أن (عليوه) لم يتعجل بسحبها ، بدا عليه دهشة من يسأل نفسه ، من هذا الرجل ؟ وماذا يريد ؟ ، قال :

- جمعاً يا سعادة البيه

وعندما أستمر ممسكا بيده ، أردف

- أحب أتشرف بسعادتك . . !

* * * * *

كان (فخري . .) قد تعرض لضغط مكثف من (قباري) والحاح بضرورة عدم فقد زبائن والده الذين يرغبون في ابتياع (الصنف) أو يسدد - الدين كاملاً ، وضمن مطالباته بأنواع من التهديد ، قلبي لا يطاوعني على ايذاء ابن حتتنا وأبوك كان صاحبنا ، وأنا عارضت في خطف عيلة ليس لها

ذنب وقلت يا جماعة فخرى عاقل . . ! وليس هناك داعيا لكسر يده . . !

عاد فخرى إلى حالة الاكتئاب واعاد عرض (مشكلته) على شله المثقفين الذين يملئون مقهاه كلاماً ، وانبرى (رشدى عبد الدايم) يجمع ما يستطيع من معلومات حول ماضى عليوه ، عرف أنه كان يتاجر فى مسروقات (الكامب) ثم تحول إلى (شراء) مسروقات البيوت والدكاكين بعد رحيل الإنجليز من المدن الكبرى وتحول إلى تجارة المخدرات التى يأتى بها من (جبل ناعسة) ومن مقهى (أبو خطوة) وأن ابرز (صبيانه) قبارى والبيضا ودوقه . . وحفظ أسماءهم الحقيقية .

* * * * *

- . . عليوه حسن اسماعيل . . أم انى مخطئ

- تمام يا سعادة البيه

- رجالك على ابراهيم المراغى الشهير بقبارى ومحسن سالم الديب

- بيضا وعبد الرحيم حسين مهنا - دوقه ، أظن دول رجالك الأوفياء ؟

تلفت (عليوه) حوله ، لاصقاً ابتسامة تحت شاربه المشذب بعناية ، ضغط على يد (رشدى) بحركة لاشعوريه ، وقال :

- أحب أتشرف بسعادتك

- اسمعنى كويس يا سى عليوه

مال الى أذنه وقال :

- جبل ناعسه ، قهوة ابو خطوه ، انت طول عمرك رجل ناصح ، أيام رابش الانجليز ، الوارد ، وعصابات الكباين والمساكن ، احنا نعرف عنك كل شئ يا سى عليوه . .

- . . أنتم ؟

- أيوه ، المديرية يا معلم ، لكن أعمالك الطيبة لأهل الحى وآخر مرة أشتريت ثلاث حصر للجامع . . صح . .

كاد قلب (عليوه) يقفز من فمه الفاغر . .

- أفهم . .

قام (رشدى) فقام فى أعقابه (عليوه) وخرجا من صحن الجامع ، على العتبه أمسك عليوه بذراعه .

- يا سعادة البيه . . أنا . .

- أنت مراقب ، خف شويه تعوم . .

- أعرف اسم سعادتك ، لأجل أقوم معك بالواجب

- . . . واجب

- عنيه يا بيه

- الولد فخرى العاجز ، ابن عبد القادر ، عميلك القديم يا معلم ، الذى كان يحول مقهاه غرزه بالليل لتوزيع بضاعتك ، تبطل زن على دماغه وتبعد صبيانك عنه . .)

لم يجب هز رأسه موافقاً وأطرق ، ثم رفع عينيه متسائلاً إن كان (الولد) اشتكى للحكومه ، عاجله (رشدى)

- ريح نفسك ، نحن نعرف كل حاجة، نحن الحكومة يا معلم ، العهد الجديد ، نعطيك فرصة وحيدة ، وبعد ذلك ، ذنبك على جنبك . .

- غال والطلب رخيص يا سعادة البيه . .

(تنفس عليوه بعمق عندم ابتعد رشدى عبد الدايم)

* * * * *

مثل لنا رشدى المشهد بالكامل ، صوت ، وصورة ، أنبهرنا . .

أقسم (فخرى . .) بذراعه ، يقطعه إذا لم نقبل عزومته على (العشاء) فى بيته ، احتفالا بهذه المناسبة ، وجه الدعوة للجميع . . أعتذر فضل الشيشينى وطه العادلى لارتباطهما بحفل خاص ، ولم يقبل (محمود عبد المنعم) الدعوة . . مقترحاً ان يتبرع بثمنها إلى (المسجد) . .

قال طارق : هذا أقل ما يجب ، أما إذا عاد المعلم عليوه يطلب فلوسه ، يبقى ثمن العشاء ، يضاف على حساب المشروبات .

* * * * *

رحبت بنا السيدة (حميدة) كأننا من أقاربها الحميمين ، فقد كان فخرى يصحب همومه إلى البيت ولا يجد سوى (عمته) ليشكو لها (ضغوط) عليوه وعصابته عليه ، وهى لم تنى تبحث عن هذه الخبيثة ، أعدت طبقاً كبيراً من الفتة والأرز واللحم وفرت هدوءاً بالمنزل جعلنا نبحث عن (العيال) ونسأل أين أختفوا ، وقد توقعنا (سويقه) صغيرة أثناء (العزومة) ، ارتدت ثوباً يصل إلى قدميها ، شدته على خصرها بحزام عريض من نفس القماش البرتقالى ، أطلقت شعرها الغزير المجعد خلف ظهرها فلم يستقر برغم أنها عقصته بمنديل أحمر مشغول بالصوف الملون بدا الشعر النافر والشفتان الغليظتان المستديرتان وكذلك العينان اللوزيتان المنتفختان قليلاً ، مع القوام الممتلئ والأرداف العريضة ، كأنها لإحدى جوارى السلطان المغربيات ، تحتفل بيوم عتقها وزواجها من أحد القاده . .

امتلأت بالبهجة وهى ممسكة بالفوطة وسطل الماء ، بعد الطعام ، تصب لنا منه لنغسل ، قدمت الشاى المنعنع ، وأحاطت (رشدى عبد الدايم) و(صلاح شريف) بعناية خاصة ، بينما اندمجنا نحن مع فخرى الذى امطرنا بكلمات الترحيب . . (رشدى) لديه مقدره على (نكش) الآخرين ليتكلمون

فقد راحت (حميده) تتحدث بدون تكلف ، وتنتقل من موضوع إلى موضوع ورشدى يبنى لها الجسور ويشق لها المجرى وينزع من طريقها السدود - بينى وبين طارق حوار صامت - فى ظنى انه لا يعمل بهذا النشاط بدون طائل ، عندما تطرقت إلى الآلام التى فى ظهرها ، احتضنها بين شاطئيه .

- انا عندى علاج ناجع لوجع الظهر

التفت إلى (صلاح) وقال له بصوت يفيض بالرجاء :

- وحياتك يا صلاح ابقى فكرنى أبعته معك (للهانم)

انتظر برهه ، لتحتل كلمة الهانم رأسها ثم التفت إليها وقال :

- فى الاصل انا ساكن فى كوم الشقافه ، منزل رقم ٨ ، أول شارع السندباد متفرع من شارع الرحمة .

قال العنوان كلمه كلمة بوضوح ، كأنه يمليه علي شخص بداخل عينيها اللتين اتسعتا لتستوعبا المعانى الخفيه .

- أصل أم محمد عندها نفس التعب

سألته (حميده)

- انت متزوج؟

- خنشور مثلي لابد وأن يكون متزوجاً . .

(وراح يحكى عن طفليه ونوادرهما وحميدة تستمع إليه بشغف ، حتى (نحن) كنا نسمعه ، مبتهجين ، وفى ثنايا الكلام تطرق إلى ان أمرأته - هى ابنة خاله ، والزواج قسمة ونصيب (تعرفى يمكن تقعد عند أهلها أكثر ما تقعد عندى فى البيت ، عامله حجة أبيها المريض ، وهى باين كده بتهرب منى)

جميع الاشارات وصلت ، رشقت فى خلاء نفسها ، حتى باتت تعتقد

أن (رشدى) قلقه القمر ، الذى يتفجر بالرجوله - بطل المسرحيه - يعانى عطشاً وان ابريق زوجته فارغاً وهو يمد لها يده - يتوسل ان تعطيه رشفه واحدة ، هل استشف رشدى ، الظروف التى جعلت (حميده) تتزوج مرتين ، من رجلين قصرت سواعدهما عن إحتوائها . .

* * * * *

فى رأى رشدى ، أن طارق وربيع من جماعة تعيش فى الأرياف ، يأخذا الحياة من زاوية واحدة .

- شوف يا أبا فراس ، أنت أصلك بني آدم عائش فى صومعه أخلاقية . . والدك رجل مكافح ، يطفح الدم من أجل لقمة العيش ، أضطر أن يرفعك من فوق - البابور - قبل ان يتم نضجك ، يعنى انت نيئ وفى حاجة إلى اعادة طبخك ، قلبك كله شغت ، اسمع ، فيك من يكتم السر .

- فى بئر

- يوم الاثنين الساعة اثنين ، تأخذ بعضك وتنزل إلى قلعة باسيليوس ، لك عندي مفاجئتان

- أعرف . .

- عندما تحضر ، ستعرف . .

- أعرف واحدة منهما على سبيل الحافز النفسى

- ستأكل لحماً ، طاجن خاص بك . .

- إذا كانت احدي المفاجئتين طاجن فالاخرى على نفس المستوى

- بالعكس ، الاخرى ، ستشاهد فيها أهم معارك التاريخ ، ربما تتحمس للنزال .

* * * * *

ذهب ابو فراس إلى القلعة ، كان الربيع يقذف بالغبار في العيون ، وأخبار أزمة مارس تملأ صفحات الجريدة التى معه ، عودة الضباط إلى معسكراتهم ، استقالة (عبد الناصر) ، اضرابات واعتصامات فى المصنع والمعسكرات ، طرق الباب ، فتح له (رشدى) كان يرتدى فانله بيضاء تكشف عن صدره وذراعيه ، وبنطلون (كستور) مقلم ، يتصبب عرقاً ، أدخله ، رائحة اللحم تملأ أرجاء الدور الأرضى ، انتهى من إعداد الطعام (يعد الطعام بنفسه ، فى هذه الحالة يكون قد تخلص من زوجته وعياله الدور العلوى هادئ) رحب به فى كلمات مقتضبه ، أجلسه في الصالة أمام المائدة المربعة ، أنشغل بإعداد طبقين ، أفرغ له برام صغير من اللحم بالبصل والطماطم والفلفل ، واحضر طبق به سلاطة طحينة ، تحدث ربيع عن أخبار الصحف ، تناول رشدى الجريدة ، ألقى عليها نظرة سريعة ولم يعلق ، جلس فى مواجهة الطعام ، أخذ يأكلان فى صمت ، قبل أن يفرغا قال رشدى :

- خلص طبقك يا ابا فراس ، اسرع لا يوجد وقت

لم يكن (ربيع) متحمسا بالقدر الكافى ، لم يرد وواصل ازدراد الطعام ، عاد رشدى يقول وهو ينظر إلى الساعة

- المفاجأة على وصول . .

حدس ، انها إمرأة ، كثيراً ما وصف لهم هذه المقدمات والاستعدادات لاستقبال فرائسه ، كأنه رأى هذا المشهد من قبل ، قال رشدى :

- اسمع يا أبو فراس ، أكتم نفسك ، ستختبئ فى المنور خلف البلكون ، مكان يتيح لك الفرجه بوضوح .

- أهى أمرأه من الشونة . . أيهن . . ؟

- لا تحاول ، ستراها بنفسك حالاً . .

إذا فرشدى سيمثل مشهداً من أجله ، من يرغب فى الإستمتاع لا يدعو مشاهدين ، شعر ربيع بالإشمئزاز ، فكر فى الإنصراف مع بعض الكتب .

- ستتمتع بمشهد يكون لك زاداً ، وإذا رغبت . .

- اسمع يا رشدى ، أنا ماشى . .

صوت أقدام تصعد السلم الخارجى ، تتوقف عند الباب ، يشير إليه بالصمت ، بينما طرقات ، خفيفة ، متقطعة ، جعلته يشير إليه إلى المطبخ حيث بابا للمنور ويتقدم ليستقبل ضيوفه . .

* * * * *

نظر من بين خصاص البلكون ، رأى ظهرها ، السرير الصغير ، يقع فى المواجهة ، لكنها جلست على مقعد بالقرب من(البلكون) ، كتم أنفاسه بينه وبينها أقل من نصف متر ، انتقل إلى الضلفة الاخرى ، رشدى خلع الفانله ، صدره عريض ممتلئ بالشعر ، لعله ادرك انها تحجب الرؤيا عن ربيع ، سحبها إلى جانبه واجلسها على طرف السرير فى المواجهه ، طمأنها ان ليس بالمنزل أحد ،أخذ يعاونها ويشجعها على التخلص من ثوبها ، وكأن حاستها تستشعر أن هناك أنفاساً غير أنفاس رشدى ، عادت تسأل ، قال رشدى

- لا يوجد بالمنزل سوى ديك يتيم فى المنور ، ذبحنا كل فرخاته ، إذا رغبت أقوم على الفور وأذبحه تحت قدميك قربانا . .

ضحكت ، اضطرب (ربيع) . . يعرف هذه الضحكة ، عاد يتأكد

بالنظر من الفرجات المتاحة ، كان رشدى يداعبها ، يحملها فوقه ويهبط بها
رأى وجهها بوضوح وشعرها الاسود الغزير المنفوش ، (حميده) ، شعر
مغص وآلام تعتصر أحشاده بقسوه . .

* * * * *

أشعل النار فى قلعة باسيليوس ، حطمها فوق رأس (رشدى) عدة
مرات وهو عائد إلى الرمل ، بدا كأن رشدى - ابن كوم الشقافة - قد
أعتدى على (قومه) بزعربانه ، التهبت رأسه بالثأر ، الانتقام أولاً من
الداعرة حميده ، ثم يأتى حساب رشدى عبد الدايم ، خيل إليه أنه يستطيع
جمع شباب القبيلة ويعود بفرسانها فى هجوم كاسح ، ليسبى نساء
(رشدى) ويهدم على رأسه القلعة ، ثم يبيع عشيرته فى سوق الرقيق . .

* * * * *

مشهد حميده على صدر رشدي . . انحشر داخل ربيع ، يمزقه ، لم
يكن مطاطاً بالدرجة التى تسمح باستيعابه ، هاجمه كوحش ، احتواه تحت
مخالبه وأنيابه ، إلا أنه كان يصحو منه ، كمن يفلت من (كابوس) . . مد
(طارق) له يده مواسياً ، وعاب عليه (صلاح) أن يعيش فى الحضر بعقلية
أهل الوبر ، وان سبب ضيقه ان (حميده) ارملة عبد القادر - الذى يعرفه ،
فإذ كانت أمرأة من الشوئه ما تأثر . . أى انك توافق على (الحرية
الشخصية) بالطريقة الشرقية ، على قاعدة (ان لا تمس مناطق نفوذك
القبلى . .)

* * * * *

انت أيضاً تختلس النظر إلى فخذى (بهيه) جارتك ، المقيمة فى

غرفة بحوش المنزل وهى منهمكه فى غسيل الملابس أمام (الطشت) بباب غرفتها ، ترقبها أثناء صعودك ونزولك أحيانا تشعر بالحسد من زوجها - الخباز المصوص ، تحس بالغيره لأنه ، يحتوى تلك المرأة البضه ، التى جاء بها من الزقازيق ، مغلفة بالثوب الأسود وما أن أكلت العيش الساخن بالعسل والطحينة ، وشوت السمك البلطى ، وطبخت لحمة الرأس ، وسقط العجول ، حتى تفتق جسدها وتكورت وجنتيها وعجيزتها ، تفتحت وأينعت كالشجرة البرية إذا طالها الربيع ، تتلكأ عندما تراها عند حوض الغسيل المشترك وقد رفعت قدمها على طرفه لتتمكن من شطف المواعين ، تطيل النظر إلى ما انحسر عنه الثوب ، كم من المرات ، هجس لك ، انك تستطيع ان تصل إلى مخدعها ذو الاعمدة والداير فوق وتحت ، فى الليالي التى يمضيها - الزوج - بالمخبز وتبقى هى وحدها ، جالسه على عتبه باب الحارة فى الليالى المثقلة بالرطوبة الساخنة ترقب المارة إلى ساعة متأخره ، كم من المرات صحبتها معك إلى الكنبه التى تنام عليها ، تطل عليك من بين صفحات المجلات أو الكتب . .

(رشدى عبد الدايم يعيش الواقع . . نعم . . الله يرحمك يا عم عبد القادر ، تكتفى أنت بالأحلام ، ظهرت واضحة ، حلقات السواد ، فوق رأسك وحول عينيك وبداخلك)

* * * * *

اذا ما رغبت فى الانضمام إلى السباق ، قد تذهب للتدريب فى الميدان الفسيح ، ترمح فى الصحراء كفرس لتقوي ساقيك ، تصعد الجبال لتقوى عضلاتك ، لكن بدون قلب صلد ، سوف تخرج من التصفيات الأولى فالسباق وضعت قوانينه لكى تستنفذ طاقة المتسابقين البدنية عند منتصفه

ثم بعد ذلك ، ليس أمام المتسابق سوى الأعتماد على قلبه وطاقته الداخلية)

• عدت إلى مكانى فى المجعرة ، بعد انقطاع دام اسبوعين ، بادرنى رشدى مرحباً

- حمدا لله على سلامتك يا . . أبو البل . . !

اعرف ان أبو البل تعنى قائد الأبل ، نفس تعبير - صلاح - بأنى لازلت قاطنا الوبر ، لم يقل (أبو فراس) وهو شاعر وفارس ومن الدولة الحمدانية ، عندما أسره الاعداء وتأخر أهله عن (فديته) كان يخاطب الحمام شعراً معاتباً تقصير من ضحى من أجلهم .

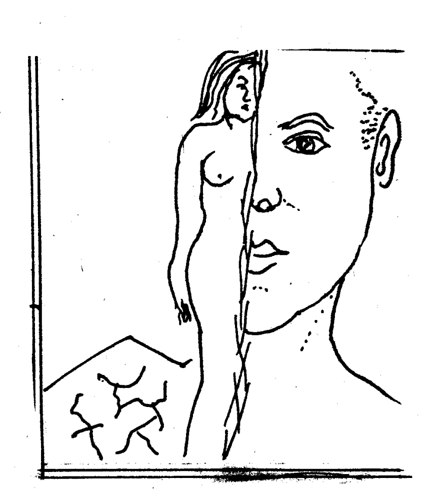
تقبلت الأمر ببساطة ،حدست انى كنت محور أمسيات مضت ، احتفى بى الاصدقاء ورشدى بصفه خاصة . . قال . . وفخرى يصب لنا الشاى من بزبوز البراد وقد رفعه عالياً أمامنا . .

- إذا دلق القرصان الشاى الساخن فى الاكواب الزجاج فجأه ، بعضها ينكسر ، بالطبع ليس من سخونة الشاى ، ولكن من رداءة صنف الزجاج ، وكانت هذه عادته فى المقدمات . . ليكمل الحديث . .عن التطور الذى جرى للأخلاقيين فى أثينا . . إلا أن حميده . . بصدرها العريض ، وضحكاتها ، كانت (تنحشر) بينى وبينه . .

* * * * *

على مشارف تلك الأعتاب اللينه ، التى تؤدى إلى عالم الرغبات والقلق ، وقفنا ، وجدنا قارب (رشدى) الأثينى يرقص على صفحة ماء البحر ، وخلفه قارب طه العادلى ممتلئاً بصناديق البيرة وزجاجات الويسكى المحملة من الميناء فى سيارته الفلوكس الحمراء ، وبجانبه يخت حديث

قبطانه فضل الشيشينى ، دعونا للابحار ألقيت عبارات الوداع لشيخى المعمم واهديته مسبحتى ، انزلقت ملابسنا من فوق ابداننا ، كما ينزلق قميص الغاده الحسناء ، فتبدو أكثراثاره - لنفسها ولمن حولها ، نشوه الخمر اطلقت الألسنه من عقالها واذابت - حموضتها - بعض الحجارة التى كنا نتساند عليها ونكتب عليها تاريخنا ، ولكنى لم ادون شيئاً فى (النوته) فالتدوين يحتاج إلى العقل ، الذى حصل على إجازته الإعتيادية .



٩- دو ، ري ، مي

. . (تقى) ابنة الشيخ (ابو الحسن) امام مسجد الظاهرية الذى يؤم المصلين ويلق بخطبة الجمعة ويزور (الشعبة) كل أربعاء ، ليجلس أمام (محمود عبد المنعم) يتلقى منه الدرس . . ينتصب بيته أمام بيت طارق ، ألتزم بتطبيق توجيهات الجماعة على أهل بيته ، فبدت (تقى) فى غطاء الرأس الذى ينسدل على الصدر والظهر حتى يخفى عجيزتها ، وهى بنت السادسة عشر ، أكبر من سنها وأكثر جمالاً فى نظر (طارق) الذى كان يراها مصادفة ، فالنوافذ مغلقة ، وقد توارب فى حذر ، ولكن بحكم الجيرة والشارع الضيق ، يصل إلى مسامع طارق وأهله ،صوت الشيخ وصيحاته من أجل الحفاظ علي الجدار بين الرجل والمرأه وأهل بيته والجيران ، يواصل وعظ ولديه التوأم الحسن والحسين وأختهما (تقى) . . أو زوجته أم الحسن التى كانت (طائعة) لمواعظ ونصائح زوجها فلا تختلط بناس الحارة ولا تحادثهم من النوافذ والشرفات ، الرجل أيضاً - فى حاله - يلقى بالسلام على من يصادفه من الجيران ولا ينتظر رداً ، وإذا طلب فى شأن من الشئون ، يستقبل ضيوفه فى حجرة بمدخل الباب لها نافذه على الحارة وقد صمم منزله على نسق بيوت الريف ، له مندرة بالدور الأسفل (وجماعته) بالدور العلوى ، أطلق على الدور السفلى (السلاملك) وعلى الدور العلوى (الحراملك)

. . . طارق ، درس بالمعهد الأزهرى بالمرحلة الأوليه ، قبل أن تحول الظروف العائليه مساره ويعمل بشركة النحاس بقسم سحب السلك ، ثم

يحصل على الاعدادية (منازل) ويلحق مع (ربيع) بالمدرسة المرقصية المسائية ، يعملان ويدرسان .

لديه صوره يعتز بها ، فيها يرتدى الجبه ويضع على رأسة العمامة ، يعلقها فى حجرته الصغيرة المنعزله بالدور العلوى فوق دخلة الباب ، بعيداً عن (زحمة) أخوته الأربعة ، وسعال والده المتواصل منذ ان غرقت السفينه التى كان يعمل عليها طباخاً أمام الساحل الاسبانى ، واستغنت (البوسته الخديويه) عن خدماته . وكركرة ماكينه الخياطة اليدوية التى تجلس أمامها والدته ، تخيط أثواب أهل الحارة ، لتعاون فى مصاريف البيت ، ومن شرفته المنعزلة بنافذتها التى تطل على نوافذ بيت (أبو ا لحسن) ، التى كانت فى العاده مغلقة فى وجهه ، إلا أنها كانت فى بعض الاحيان توارب كان يشعر بها ترقبه ، إذا ما أطل من النافذه أثناء سهر القراءة .. او الاستذكار أو الاعتكاف الملول . .

طارق ، أسمر طويل ، له رأس صغيرة بالنسبة لرقبته الغليظة وصدره المتسع واكتافه المكورتان فى تناسق الافريقى ، شعره مجعد ، وجهه بيضاوى ، له عينان عسليتان واسعتان ، دامعتان بصفة دائمة ، فتبدوان ذات بريق - كمن أنتهى من بكاء أو مقدم عليه ، وهاتان العينان كانتا ترمومتراً لحالته النفسيه ، بيضاوان صافيتان فى الحالة الطيبه - تكتسيان بتلك الخطوط القانية لمتقاطعة فتبدوان حمراوتان لهما ذلك البريق الدموى ، عندما يستشاط منفعلاً ، فرحاً أو حزناً . .

وهو انسان طيب القلب ، ليس لأنه صديقى الذى أخاطبه كأنى أخاطب نفسى ، ولكن لأنه بالفعل ، يكن للآخرين احتراماً مبالغ فيه .

أدبه وإيثار الآخرين ، كان يوقعه فى كثير من المقالب ويشكو لى .

كأنه يشكو لنفسه ، وربما يخجل ان يعرف احد غيرى ذلك ، أنصحه بأن يتريث ، إلا أنه كان يعود ويفعل أكثر فقد كان عاشقاً للناس . .

منذ نعومه أظافره ، يصلى الوقت بوقته ، يتركنا (مجعر) وينسل إلى المسجد عند سماع الآذان (الحمد لله ، لحقت الصلاه وأنا متوضى ، العدس كان عامل انقلاب فى مصارينى ، يادوبك طلعت من باب المسجد)

حفظه المبكر لأجزاء من القرآن الكريم ، نشط ذاكرته وافاد لغته ، وكان يجد لكل مناسبه آيه تفيد وتوضح المعنى ، أو بيت من الشعر ، يصحح لصلاح شريف - خريج الآداب - أخطاء اللغة فى النطق ، أما أنا فقد كف عن تصحيح نطقى ، مدعياً ان لى لغة خاصة ، لم يرغب أن يقول (ماذا تفعل الماشطة فى الوجه العكر)

كتب بعض الاشعار ، مقلداً ، وبعد ان (عشق تقى) كتب القصائد الغنائيه . .

(ياسلام لو أم كلثوم غنت لى هذه الاغنيه)

أسأله : هل تقى مغرمه بسماع أم كلثوم ؟

- العائلة كلها ، فى الخميس الأول من كل شهر ، يفتحوا الراديو على الآخر . .

فاجأ الجميع بشراءه (عود) ليتدرب عليه ، يحمله ويخترق به سوق زعربانه فى (جراب) من القماش اللبنى (خيطته له والدته) ، يذهب إلى (الاستاذ سلامه) بأرض الفولى أمام المزلقان ليتلقى على يديه مبادئ الموسيقى العربية (آمان ياللى . .آمان . .)

* * * * *

يجلس بالقرب من النافذه فى غرفته ، يعزف على العود ما تلقاه من

(رآها خلف النافذه المواربه ، تنظر إليـه ، وتختـفي ، عـزف على العود كان يستدعيها ، أطال الضرب عليه ، أطالت الوقوف خلف النافذه ، طويله ، بيضاء ، واسعة العينين بنياً شعرها أسود ويطول ينبت وينتهى أصفر ، كبنات الأكراد ، خلطه ، عربيه فارسيه تركيه ، أينعت فى أبو حمص ، واستقرت فى ضواحى الاسكندرية . .

عندما يلمح شعرها المنسدل على أكتافها ، بحريه الغرفه المغلقة ، يتحسس شعر رأسه المجعد القصير ، يدعك قمة رأسه ببطن يده فى انفعال وترقبه عينيها ، جزء من وجهها يلتصق بفرجة النافذه الضيق ، مايكاد يرفع رأسه عن أوتار العود ، حتى تختفى مخلفه رماداً فى نفسه . . (تقى يا خبيثه ، تريثى حتى أراك ، هذا ظلم ترتكبه المحجات. . !

تعال ايها العود الشقي أبثك أوجاعى ، نادى عليها بالرى دى فاصول لا سى يدق على أوتاره ، فإذا بها تعود إلى النافذه ، يبتسم ، طلب منها باشارات من يده ان تنتظر ، عزف المقطوعة التى أجادها عدة مرات ، ثم باشارات من يده التى قلبها فى الهواء بمعنى (مارأيك ؟) ، قالت بصوت وصل إليه واضحاً (بائخه) وأغلقت النافذه ، دعك قمة رأسة ببطن اليد ، ينشط خلايا العقل العليل ، واحمرت عينيه .

* * * * *

اختطف الأرنب البرى ، قلبه ، وهرب به بين الاحراش ، كيف يلحق به ؟ ، مضت اسابيع وشهور وهو على هذا الحال ، انفراج فى النافذه بضعة سنتيمترات ، وحضور متواصل للحسن والحسين أو الشيخ وزوجته ، أين أنت يا تقى ، لماذا لا يراها فى الشارع وأمام مدرسة المعلمات ؟ ولكنه

كان يرى أن هذا غير ملائم من جار دائم ويخشى على سمعتها ، ألح عليه هذا الخاطر ، زلل لنفسه اخطاره ، وكان يحصل على يوم أجازة ، ليمشى من بعيد . . ليراها على باب المعهد أو فى صحبة أحد اخوتها ، وعاد يكلم الخشب الأخضر الباهت ، حفظ مقاطع من مقدمات أغانى الغرام وليه يا بنفسج ، حاول كتابه قصة تنافس (بول وفرجينى للمنفلوطى) ثم توقف . إجتاحته - جرأة - راسبوتين المجعره (رشدى عبد الدايم) انقلب ابن الرومى الى ابى نواس يوما ، استدعاها بادئاً عزفاً على العود ، جاءت ، تأكد أنها تقى ، فقد خبر أثوابها ومن الجزء تصور الكل ، خلع منامته ، والفانله واللباس ووقف على مقعد عارياً كما ولدته أمه ، أتاح لها رؤيته كاملاً . . ندت منها دهشه ، صرخة بنت مبهوته ، بترتها بضحكه قصيره ولكنها بقيت خلف النافذه تشاهده ، تحبس شهقاتها ، ثم فتحت جزء من النافذه ، رآها بدون حجاب وقفت أمامه تتحداه ، متسعه العينين ، زامه شفتيها فى إصرار ، قال بصوت مبحوح متوسل :

- نفسى فيك يا تقى ، أنا خلاص . . حرام عليك . .

تلفتت حولها بحذر ، تراجعت إلى الوراء كأنها تتأمله جيداً ، فكت أزارها فتحت صدر ثوبها حملت نهديها المتألقان على كفيها . . لحظات . اتسعت عينى طارق . . ادماها الانفعال وسقط من فوق المقعد . . انتظرت ظهوره ، لم يظهر ، أغلقت النافذه بهدوء . .

* * * * *

بدأ ، طارق . . فى دفع أقساط (الجمعية) مع زملاؤه فى العمل ، وألح ان يكون دوره ضمن الخمسة الأوائل بمناسبة عزمه على خطوبة جارته . لقد اتخذ القرار الخطير ، ولكنه لم يعرف رأى الأطراف الاخرى بعد . .

(إذا كانت السيارات تسير بالوقود ، لماذا تندهش ان الذى يسير الانسان هو الحب ، مسكين ذلك الذى ينفذ وقوده ، يتعطل ، يقف في مكانه وإذا بالسيارات الاخرى - تنعق حلفه تطالبه بالطلوع على الرصيف)

- الحب جعل منك فيلسوفاً . .

(ليس فى قبضة اليد ، سوى قدر من التعاسه ، وقدر من الشقاء ، إلا أنى اتطلع - هناك بعيداً إلى قدر من الأمل ، وهما كافيان لأن أقضى العمر على مقعد التاجر العجوز - الذى انصرف عنه العملاء - ينتقل مع حركة الظل ، علي الرصيف من مكان لمكان ، برغم انني قادر على لعب كافة الادوار ، وبارعاً بصفه خاصة فى دور (الحبيب) حتى اختلط الأمر على الناس ، اعتقدوا انى (طارق ابن الملوح) بكل جنوح قيس ، لذلك سوف تكون نهايتى - مجنوناً - ازحف على رمال جيلاية أبو شلاط مخلفاً على سور السكة الحديد الملائم للكتابه - بعض أبيات الغزل العفيف ، والشتائم المنتقاه ، أولها يسقط الشيخ ابو الحسن . . هذا فى حالة رفض طلبى . .

- وأديباً أيضاً ، شكراً لتقى العامرية . .

كان يخشى - ان يرفض طلبه فهو قنائى أسمر ، أحد قادة أحمس ، وهي أميره من قصر يلدز)

قال الأخ محمود عبد المنعم عندما علم ان طارق . . قد تمرن على العزف :

- الموسيقى حرام ، وما يفعله طارق حرام

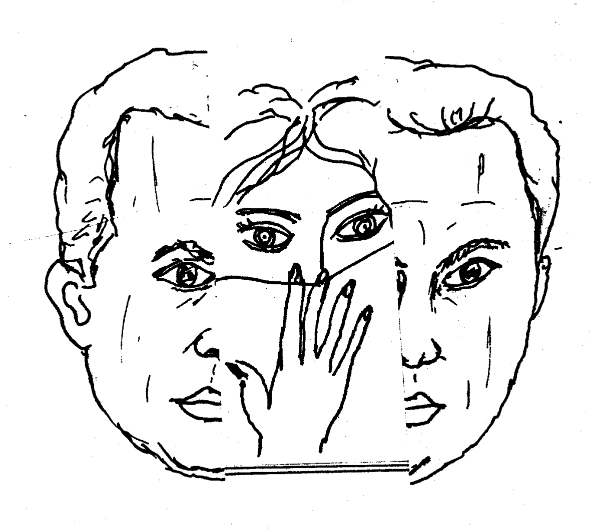
صاح طارق فى وجهه

- يا أخى حرمت عليك عيشتك ، انت جاى لنا من أى متحف ، أفضل شئ تفعله ان تذهب وتموت . . ابعد عنا وروح الجنة . . يالا . .

داعب محمود عبد المنعم لحيته وبأعصاب بارده . . قال :

- بالفعل سأذهب إلى الشيخ أبو الحسن لأخطب ابنته المصـونه ، وسـأحتـفل بخطوبتى فى بيت من بيـوت الله ، أدعـوكم ، وأنا أعلم ان بعضكم عاص ، لا يركعها . .

(رأيت عينى طارق . . يصبغهما الدم . . وقد تدلت شفته السفلى)



١٠ - الثعلب

(عليوه) يدب على الأرض ومن خصائص عمله ، أن يبث الذعر فى قلوب الآخرين ، لم يستسلم لحالة القلق ، التى سببها له رجل المديريه العملاق ، اكتسب خلال حياته المتعرجة صفات الثعلب وحيطته ، وليونه الثعبان وبياته ، كان قد أخفى طباع الذئب الأصيله فيه ، منذ أمد ، انكمش أياماً ، ثم تسلل يسعى هنا وهناك باحثاً عن جحر آمن . . .

قال له (مخبر الحي - بعد ان وصف له هيئة رشدى ، لا يوجد لدينا شخص له هذه السمات فأطلق أعوانه يفتشون ، جاءه - قبارى بهواجسه (فى بعض الايام يجتمع (شويه) شبان فى مقهى فخرى الأكتع ، بعضهم من زعربانه ، والآخرون من شارع (لافيزون) إلا أن هناك شخص يأتى من (البلد) له نفس المواصفات . .

- أشوفه يا قبارى . .

لبد بالقرب من (المقهى) أمام دكان الزناتى بائع الفاكهة ، رآه ، عرفه ، فأطلق خلفه كلبه المدرب (تتبعه ليل نهار ، تجيب لى قراره وكل شئ عنه . .) فى المساء تبعه حتى عتبه القلعه ، وفى الصباح تسلمه حتى عتبه الشونة ، وبعد الظهر مشى خلفه حتى دخل بيته . . فجلس على مقهى قريب ينتظر خروجه . . ومن أفواه جيرانه وخفراء الشونه جاء - قباري - بخبر رشدى عبد الدايم . . لا ضابط ولا يحزنون يا معلم . .

لم يندهش - عليوه - لزم الصمت ، ثم راح يقلب الموضوع على جوانبه . .

- وجائز يا معلم . . ملعوب وياما ضحكو فى القهوه مع الولد فخرى . .

حدق فيه بعض الوقت . . ثم قال :

- على العموم ، انا كده ارتحت ، زودوا الضغط على الولد فخرى ، لابد ان يدفع الفلوس أو يبيع القهوه ، أما الأفندى بتاع المديرية ، يشوف يعمل إيه قداء الضابط الحقيقى . . . أنا رايح لسامى بيه فى بيته ، جهزوا لي (سلاء) يرد الروح ، البيه يحب إذا كانت فراخ تبقى شمورت ، وإذا كان سمك يبقى صابح . . طيب يا أستاذ رشدى يا عبد الدايم . . !



١١ - ثلاثية حوده ، سليمه ، صلاح

اسفل سور حديقة (الكنيسه) الموازى لشريط السكة الحديد ، عندما ينعطف القضيب ويدخل إلى ساحة من ساحات (شركة النحاس) المكدسة بالحديد الخرده . .

عثر الأهالى على جثه (حوده) . .

شاب تجاوز العشرين من عمره ، قمحى ، دقيق الجسم ، من المتسكعين فى حي زعريانه ، ليس له عمل محدد ، وليس له أقارب ، أحضروا من كان يدّعي أنها عمته ، أمرأة عجوز فى أسمال باليه ، تبيع الجبن الفلاحى والفجل على ناصية إحدى الحارات المتفرعة من شارع السوق بكت المرأة بدون دموع ثم قالت - إنها ليست عمته ولكنها كانت زوجة للمرحوم أبيه منذ زمن بعيد ، ورفضت ان تتسلم الجثة (ماذا أفعل بها يا (بيه) وانا حيلتي حاجة) !

* * * * *

منزل (صلاح شريف) يقع بالقرب من مزلقان السكة الحديد ، عند نهاية شارع (وينجت) حركة الناس المتجهين إلى مكان وجود الجثة ، يمرون أمام منزله ، حفزته أن يذهب ويستطلع ما حدث . . .(قال : الولد حوده كان مضروب بالنبابيت ، رأسة مهشمة ، عربة الاسعاف الحمراء وجدته ميتاً ، ذهبت وجاء البوليس من نقطة حجر النواتيه ، وحضر وكيل النيابة ، تمت المعاينه وحملته السيارة السوداء . . وتفرق الخلق . .)

معظم الناس كان يعرفون أن (حوده) حرامى ، يسرق الخردة من ساحة شركة النحاس فى الفجر ، وانه اعتاد على أن يقفز من السور المطل على السكة الحديد ، يستولى على بعض المواتير القديمة ومعدات السيارات التالفة ،ليبيع ما يحمله إلى تجار الخردة فى سوق باكوس ، يلعب بالفلوس القمار ، يشرب السبرتو والخمير ، يسكر يتصعلك فى حوارى زعربانة ، ليس له مثوى سوى - الجبل - يلجأ إليه فى النهار وينام . .

(لم يتطوع أحد بشئ يجلو غموض الحادث - لدى البوليس . .!

فتش الضابط جيوب القتيل ، وكل ما فيها وضع فى ظرف أصفر ، ألصقوه بعناية وتمت عليه التوقيعات وحرز ، . . حزن (صلاح) على القتيل (قال : نصحته بأن يكف عن السرقة وكنت أبحث له عن عمل لدى أحد الأقارب ، وطلبت منه ان يذهب إلى ورشة النجارة التى يملكها ، قبل الحادث بإسبوع ، لو انه سمع كلامى . . إلا أنه لم يفعل ، وبخته وكدت أضربه عندما عثرت عليه يتطوح فى السوق . .)

* * * * *

منطقة معسكر (وينجت) كانت مكاناً خالياً - بعد رحيل الكامب ، تمتد من مبنى المدرسة الابتدائية شمالاً إلى خط السكة الحديد جنوباً بمسافة كيلو مترين طولاً ، وكيلو متر عرضاً ، ينتهى عند سور حديقة الكهنيسة التى تضم المدرسة الفرنسية ودار الراهبات وأشجار باسقه ومشتل أزهار وحظائر للدجاج والديوك الروميه ، وقد اعتاد (عيال) زعربانة ان يتسلقوا السور الحجرى ويتخطوا الزجاج المرشق فيه أو السلك الشائك يقفزون داخل الحديقة ويسرقون الفاكهة والزهور النادرة والدجاج . .

ادارة الدير ، لذلك استخدمت بكر العربى لحراسة الحديقة وصد هذه

الغارات ، انشأت له حجرة فى زاوية السور بالقرب من السكة الحديد ، لها نوافذ تطل على (الكامب) الحالى وشريط القطار الموازى لسور شركة النحاس ، وليقيم فى هذه الحجرة التى اضاف لها زريبة صغيرة يربى فيها بعض النعاج ترعاها ابنته (سليمة) . .

الخفير بكر العربى ، متزوج من أمرأة بدينة ، بطيئة الحركة ، تحزم بطنها المدلاه أمامها بحزام عريض عباره عن شال أحمر كبير فوق الثوب المتعدد الألوان ، والبنت (سليمة) التى اعتاد أولاد زعربانة الذين يلعبون أو يتسكعون فى هذا الخلاء رؤيتها منذ كانت صغيره ، ترعى أغنامها على الربوه التى تقع خلف كشك المزلقان ، يعاكسونها فتقذفهم بالطوب ، وقلما تخطئ الهدف ، ولم يدرك أبوها ضعيف النظر ، قليل السمع ان البنت كبرت ، حتى بعد ان ضاق ثوبها القديم على بدنها الفائر إلا أن أمها كانت تنهرها وتنادى عليها بالعودة إلى داخل سور الحديقة بأغنامها إذا ما رأت بعضاً من المتسكعين يتحرشون بها أو يلعبون فى الجبل ، وان كانت تعرف ان ابنتها - حادة الطباع - قادرة على حماية نفسها . .

الخواجه الذى يربط على سيقان الزهور أرقاماً وحروفاً ، أهداها وردة ومدح جمالها بالفرنسية ، عندما رآها فى طرحتها السوداء قد عقصت فوقها عصابه من قماش ملون ، وجهها الناضج الذى لوحته الشمس بملامحة العربية وفوقه هذه العصابة أضفى عليها جمالا لم تخطئه عين الخواجه العجوز ، وبقدر ما كان ودوداً مع سليمة وأمها ، كان عنيفاً فى توبيخ أبوها على تكرار سرقات الزهور والدجاج وكان يهدده بانهاء خدمته وتعيين حارس آخر يوقف هذه المهازل . .

وقع عبء الحراسة ليلاً على سليمة وأمها فالرجل الذى يعشى ليلاً ،

يجوس خلال طرقات الحديقة الواسعة ، يصدر أصواتاً ويخبط بنبوته على جزوع الشجر والأصص ، اولاد زعربانه عرفوا عنه قلة الرؤيه والسمع . . فكانت الضجة التى يصنعها تسهل لهم عملهم ولا تخيفهم . .

فى الامسيات القمرية ، ترى (سليمة) من مكمنها خلف النافذه ، أشخاصاً يقفزون سور شركة النحاس ، يسرقون الخرده وعندما كان يحس بهم الخفراء ، يتصايحون عليهم من بعيد (أمسك حرامى - حلق يا جدع) ويطلقوا الصفافير ، إلا أن اللصوص كانوا يواصلون نقل ما يحملونه دون ان يعيرونهم إلتفاتاً ،تعرف من بينهم - الولد حوده - الذى يأتى فى معظم الأحيان ، إلى الجبل لينام فيه بالنهار ، وبدلاً من مراقبتها للجعارين وهى تدفع كور الروث أمامها ، كانت وهى ترعى اغنامها تتسلي بمراقبته ، قد تشرد نعجه ، فتذهب خلفها ، تمر بجواره وهو مستغرق فى النوم وحبات العرق تلمع على جبهته السمراء مختلطة بحبات الرمل ، ظل السور الذى ينام تحته ينحسر مع حركة الشمس عنه ، تصنع (سليمه) ضجة مفتعله ، ورر ، زرر ، فتقفز النعجة بعيداً ويستيقظ (حوده) على وجه سليمه وعيونها الدعجاويتين . .

- ليش تنام في حرقة الشمس . بغز . .!

تتلكأ لتسمع كلماته

- صعبان عليك ، يا صباح الفل ، متى ربنا يكتبها لى يا سليمه ، تصحينى فى أوده النوم وأنا وانت على سرير بضرابيه بمبى ، أبوس الخدود التفاح . .)

تنهره

- فز . . تور . . قول مساء القطران على رأسك . .)

وتمشى بعيداً ، تخلع قدميها من الرمال الناعمة . .

- كبرت يا بنت الإرمه ، بقى لك (....) يترقصوا ولا نعيمه شخلع فى زمانها .

تتوقف وتستدير فى عصبيه - وهى تعرف انه سوف يقوم بسرعة - تبحث عن شقفه تشيعها إلى جسده الضئيل ، يدرك غرضها ، مرات قليله أصابته ، ومرات كثيرة كان - لخفته يتفادى طوبتها ، تضحك وهى تصيح:

- وقف يا جبان وأنا أشق رأسك ، يا صايع .

* * * * *

استمر (نط) اللصوص في الليل داخل الحديقة ، الخواجه يغضب ولا يجد أمامه إلا الخفير بكر يصب عليه جام غضبه بالعربى المكسر والفرنساوى ، زعل بكر وركبه الهم انتقلت همومه إلى سليمه وأمها . . خشيا ان يفقد الرجل وظيفته ويعودا إلى (مرسى مطروح) وخدمة العائلة الكبيره هناك ، دار فى ذهن سليمه ، ان اللصوص الذين يسطون على ساحة شركة النحاس ، لهم يد ، رأت (حوده) نائما كعادته ، ذهبت إليه وأيقظته يعود أخضر ، تهش به غنماتها . . ضربته ضربات خففه . .

- يا صباح الفل يا صباح الياسمين ..

- وين الصباح يا منيل ، ونحن فى العصارى ، سيبك من ها الموال القديم قل لى يا حوده ، ما بتعرف أصحابك اللصوص ، الل يخسروا أحواض الزهور وسرقوا الدجاج ؟

اعتدل (حوده) راح ينفض عن شعره وجبهته ما علق بها من حبات الرمل ، استوعب الأمر ، انكر ان يكون هو أو أحد من أصحابه الذين يعرفهم قد سرق شيئاً من الكنيسة .

- يا بنت هو إحنا بتوع ورد ؟ إحنا بتوع مواتير ، نحاس ، سلندرات لوازم الميكانيكا يا أنتيكا . .

مد يده نحو صدرها ، عندما كانت تميل عليه ، لسعته بالعود الاخضر ، ضربه خاطفه ولكنه تفاداها .

- لم يدك ، واجمع حالك . . !

كان ثوبه شالحاً عن ساقيه ، سرواله ممزقاً ، فسحب طرف الثوب ، وقال ضاحكاً :

- عينك يندب فيها رصاصة يا سليمة يا بنت بكر الأعمش . .

- انشاء الله أنت ، وأهلك ، . . . وين أهلك ماليك أهل نشتم عليهم يا ضايع . . ، ثم تخلت عن ثورتها وركعت بالقرب منه .

- كلمنى زين ، بوى سيطرد من الخفره ، من شان اللصوص اللى مالهم هدف إلا تكسير زهور الخواجه وهياجه على بوى . .

اثناء حديثها ، طرأ على زهن (حوده) خاطر ، كاد ان يصرح لها بالفاعل الذى حامت شكوكه حوله ، فهو يعرف الأماكن التى تصرف عندها المسروقات ، الزهور ، يشتريها خواجه مالطى ، محله خلف محطة ترام بولكلى . . شكوكه حامت حول - الجهينى واخوه - الذى جعل من حديقة الكنيسة منطقة نفوذ له .

- طيب يا قمر . . سيبى لى الموضوع ده أتأكد الأول ، هو . . ؟

- هو من ؟ تعرف . . ؟

- لو عرفت ، وخليت أبوكى يمسكهم ، تخلينى أمسكهم . . ؟

- تمسك من ؟

مد يده نحو صدرها ، ابعدت يده بظهر يدها ومشت بعيداً ، رآها

ترقص له وحده ، استمر ينظر إليها ، كان لديه احساس انها سوف تلتفت إليه ، وبالفعل التفتت ووقفت بعيداً وصاحت فيه :

- إذا جبت خبرهم . . يا حرامي . .

صاح . . وضع يديه حول فمه . .

- ماشي يا قمر . . طيب قولي . . والمصحف . .

* * * * *

من بائع الورد ، تأكد انه بالفعل (الجهيني) وشقيقه ، يبيعان له الورد ثلاث مرات كل اسبوع أتفق مع بائع الورد ، انه سيجلب له كميه ثلاث مرات في الاسبوع بسعر أقل ، وانتظر في سوق زعربانه ، لم يذهب لينام في الجبل ، كان يعرف ان (الجهيني) سيبحث عنه ويعثر عليه وإذا بالجهيني يقبض على كتفه ، وبلهجته الصعيديه ، أخذ يهدده ويؤنبه .

- أصول دي ياحوده ، ما أنت بتسرق من الشركة ، أنا رحت للبرص تاجر الروبابيكيا وقلت له ،أورد لك أرخص . .

تخمينه كان في محله ، قال :

- خذوني معكم ، الشركه فلست ، وأنا على الحديده

- تنط معانا ، تأخذ نصيب ، تقف بعيد ، تقبل اللى فيه النصيب

وافق على ان - يراقب ويرضى بقليله ، حصل على موعد تنفيذ العمليه والمكان ، وفي نفس المساء ، قبض على الجهيني وشقيقه داخل الحديقة في كمين ، أشرف عليه الخواجه بنفسه ، وعاون بكر العربي مجموعة من فراشين المدرسة الفرنسيه .

انبسطت أسارير الخواجه ، (كده تمام يا بكر . . أنا مبسوط كتير) وضحك في وجه الرجل وسليمه وأمها . .

* * * * *

نظرت نعجه صغيره فى اتجاههما ، مالت برأسها كأنه تود ان تعرف ماذا تفعل صاحبتها (سليمه) مع هذا الفتى الأسمر على كومه القش ، كفت عن المضغ ، تراجعت إلى الخلف في قفزات خاطفه ، ثم عادت إلى وضعها ، كلما احتدمت حركتهما أمامها . . . أغلقت سليمه ساقيها ولمت ثوبها فى حجرها ، تركته يلثمها كيفما شاء ، يحتضنها يتحسسها ، استطاع أن يسحب طرف ثوبها ، كادت تتراخى وتكف عن حرصها ، إلا أنها فى كل مره كانت تعود وتغلق المنافذ ، استمر فى محاولاته ولهاثه ، فى البداية كانت تؤدى دينا ، ثم تناست واسترخت ، عندما كان بدنها يستقبل تيارات راعشة مدغدغة لم تعتادها . . . . . ثم همد .

ازاحته عن صدرها برفق ، كانت تود ان يبقى مده أطول ولكنها أخمدت رغبتها حتى لا تتطور الأمور ، وأضمرت فى نفسها ، أنها الأولى والأخيره ، ففى الظروف العادية لا يقبل والدها ان يزوجها له ،حتى ولو كان صاحب عمل شريف ، فهى مدخره لأعرابى مثلها من أبناء عمومتها .

. (والله يا سليمه ، . الولد تحول على صدرك لفارس هلالي . . لو أنه استحم ، ومشط شعره المكركت ، وازال الوسخ من خلف اذنه ورقبته ، وجهه متناسق ، فمه رهيف ، قبلاته أفقدتك الوعى)

فى المره الثانية . .جعلته يكتفى بتقبيلها ولمس صدرها ، بعد ان عاد من شاطئ جليم . . فى الثالثة ، قطعت دغدغاته فى رقبتها ، لتسأله ، حول عيشته التى ليس لها هدف ، فحدثها بفخر عن أصحابه ، (الضبع) الذى علمه كيف يشرب الخمر ولا يسكر ، و(النمر) الذى علمه كيف يسطو على الشركة ولا يمسك به (والقط) الذى علمه كيف يلعب القمار ولا

يخسر.

أغتاظت سليمه منه ومن أصحابه الحيوانات وصاحت فيه :

- وين فلوسك يا متعوس ، هذا علمنى كيف وهذا عملنى زيط ماهم إلا حيوانات (مالك دعوه يا بنت يا سليمه . . اترغبين فى اصلاح حاله ، وما هدفك ؟!)

سكتت فجأه . . قال (حوده) مندهشاً . .

- فلوسى يا قمر . . أصرفها عليهم ، دول المعلمين ، أصحابى حد يقدر يعيش من غير أهل ، وكمان من غير أصحاب . .

* * * * *

سمعت ، صرخته تشق استار الليل ، اذنها فرزتها من بين الضجيج رأت أشباحهم من نافذة الغرفة المطله على الشركة . . عبر السكة الحديد على الربوة المزدحمة والمتشابكة بحديد الخردة ، يتفرقون ويلتحمون بنابيتهم تعلو وتهبط ، ثم يسود السكون ، إلا من همهمات ، رأتهم يتزاحمون فى شله ، يخطون فوق القضبان التى تعكس ضوء النجوم البعيده من خلف غمامات الدموع التى ملأت مآقيها .

قال لها والدها : ماذا تسمعين يا سليمه ؟

قالت : لا شئ

قال : خيل لي انى سمعت ضجة

قالت : الخفراء يتوانسون

قال : لماذا تبكين . .

قالت : لا أبكى يا أبى . . عود أخضر طرف عيني . . !

* * * * *

انتاب النعاج حاله من القلق ، صدرت عنهم حركات غير عاديه ، عندما رفعت (سليمه) بابا من رقاع الصفيح وقطع الخشب ، المصباح (الصاروخ)فى حضنها ، تواريه خلف طرف طرحتها ، بحثت عن نعجتها الصغيره ، التي شاهدته معها ، عينا النعجه المستديرتان ترقبانها وهى تتقدم منها ، تراقصت زبالة المصباح وانطفأ ، إلا أن النعجة لم تجفل بعيداً احتضنت (سليمه) رقبتها ، وعلى وجنتيها ، انخرطت فى بكاء استمر - فيما بعد - متقطعاً ، كانت متيقنه أنه هو الذي سقط في أيديهم .

لم يخف على (صلاح شريف) هذا الشجن - من بين الوجوه الحزينه التقط هذا الألم العميق فى عينيها ، بينما العيون الأخرى زجاجيه ، لفت نظره عودها الفارع وتكوينها الجديد ، وهو الذى كان يرها من قبل فتاه أعرابيه حافيه كالصبى ، غير متناسقه الأعضاء ، تركض خلف غنماتها وتقذف الأولاد بالطوب . . (ماذا فعل بك خراط البنات ، لقد ابدعك . .)

استشف خيوطاً تربط بين - حوده القتيل - وبين سليمه الاعرابيه .

- ماذا بين هذا الشقى الذى حاول جذبه إلى حياه الكادحين فأبى ، وبين هذه الفتاه التى يعصرها الألم ؟ أهتم صلاح . . بمقتل حوده ، ليس فقط لأنه كان يحاول تغيير اسلوب معيشته ، فهو يفعل ذلك مع اشخاص آخرين وينساهم ، ربما كان اهتمامه نابعاً فى الأساس لكشف العلاقة الخفيه التى استشعرها بين - حوده وسليمه . . ولبضعه أيام ، لم تفارق خياله ، هل جاءت سليمه فى ظرف رشحها كطرف فى مغامرة راسبوتينيه ، يبدو فيها صلاح - الكاهن وسليمه احدى الاميرات الروسيات ، أم ان المجال الحيوى لرشدى عبد الدايم ،كان له تأثير غير مباشر على صلاح . . ليقوم بتجربه فى معمله الخاص بعيداً عن - عموميات - الشونه وتوجيهات المعمل . .

مقتل حوده . . سلم . . قد يصعد عليه ، ولكنه يخشى (الثعبان) الذى يهبط به إلى أسفل ماذا لو انهاعاملته بحده طباعها المعروفه عنها ، كما تعامل أولاد زعربانه ، قد تصنع له فضيحه ، هو فى غنى عنها ، ورغم ذلك ، تشجع على المحاولة .

* * * * *

- صباح الخير يا سليمه

- صباح الخير يا لفندي

نظاره طبيه ، وجه حليق مستدير ، اطول منها قليلاً ، جسمه يميل إلى السمنه غير المفرطة ، كعنوان لرغد العيش وأنه ليس من الفئة التى تفقد سعرات حرارية أكثر مما تحصل . . !

يبدو مهذباً فى القميص السماوى والبنطلون الرمادى ، كلماته ناعمه لديه خبرة فاتح الشهيه لتبادل الحديث ، سألها عن والدها وعن أخيها الذى يعيش في ليبيا وهو أخ غير شقيق لها ، قليل من يعرف عنه شيئاً ، ثم عن (حوده) لم تجب فى البداية ، حاولت الانصراف بعيداً عن صف شجر الفيكس على رصيف الشارع هشت اغنامها صاعده الربوه ، اظهر لها الاسى والحزن على صديقه حوده ، صرح لها بأنه أعطاه خطاباً قصيراً لقريب له ، لديه ورشة نجارة ، لكنه لم يذهب وانه كان يعرف والده عندماكان يبيع (المعموله) على رصيف محطة الظاهرية ، كسب ثقتها . . قالت :

- ايش تريد ؟

-عندك فكره من فعل به هذا ؟

- وايه يفيد يالفندى ، خلاص . . ضاع . . !

- تعطينى فرصه ، انتقم لصاحبى ، حوده ضحيه المجتمع البرجوازى

قاطعته بحده

- حوده ضحية الحفر ، إيش جاب البرجوازى فى مقتله . . !

- معك حق ، حوده ضحية الحفر ، لكن قتله جنايه ، ليس من حقهم قتله بالنبابيت . . كانت ضربه واحدة تشل حركته ويسلم للبوليس ، هذا انتقام يعاقب عليه القانون (أثار فيها الرغبه للثأر له . . سألت :

- وما العمل ، هو الله وهذه حكمته

- نكشف لوكيل النيابة ، عمن قتله . .

أعجبت بأفكاه ، وحماسته من أجل الثأر (للمقطوع) شملته بنظره وكأنها تراه للمره الاولى ، كما أن (صلاح) كان يرغب فى استدراجها إلى (البدروم) ليس فقط لكتابة شكوى للنيابه ، المنزل قريب من المزلقان ، طابق واحد تحيط به حديقة صغيرة ومهملة ، وسور منخفض ، يهبط إلى (البدروم) بعدد من الدرجات ، به مخلفات البيت ، أرائك ، دواليب ، كراكيب ، أحيانا كان يهرب إليه من ضجة الأهل والمعارف ، قبل أن يرحل الوالد والوالدة وينتقل شقيقه حسين المحامى إلى شقة الزوجيه بعمارة حديثة فى كفر عبده . . (بركاتك يا رشدى باسيليوس . .الصيد يقترب من الفخ)

* * * * *

بعد احتضانها . . أراد ان يطرحها على الكنبه التى غطاها بمفرش جديد ، ولكنها قاومت دون غضب ، شم رائحة طيبة ، قالت :

-عارف ريحتى زينه ليش . . ؟

- ليه يا سليمه

- استحميت بصابونة الراهبات ، واتريحت بريحة الخواجه صاحب الورد . .

أخذ يقبلها ويضمها . . وفى محاولته لرفع ثوبها أبعدت يده برفق .

- أنت بوست كثير ، والشكوى ما تمت ، ما بعد شلحى ، اتريد لى الموت يا لفندي . . أنا لا أصلح لك زوجه ، أنت لا ترضى بى . .

. . . وخرجت (سليمه) من بدرومه (المظلم) . . !



١٢- الدوامة والمرفأ

استدعى (صلاح شريف) إلى قسم البوليس ، وإذا به يفاجئ بأنه مطلوب للمثول أمام النيابه ، كان قد صحبه - مصادفة طه العادلى ، اضطرب عندما قدم له وكيل النيابة رسالة رقعة من الورق . .

(أخى شكرى

حامل هذا ، ولد حرامى ، وعدنى انه سيبذل كل جهده عندك وبما أنك (رئيس عصابه) فأرجو شموله برعايتك وتعليمه الصنعه على أصولها انت تعرف رأى الاستاذ حسين . . فلا ترجع إليه هذا سراً بيننا)

أخوك : صلاح شريف)

هى الرسالة التى كتبها لقريبه - شكرى - ليلحق (حوده) بعمل فى ورشته ، وكان قد تحدث معه حول ظروفه - نولد فى ظروف سبقتنا إلى الوجود - وانه يؤمن بأن فى الانسان جانب خير ، مهما كان ضئيلاً ، يمكن تنميته ، ليتغلب على سقوطه ، ابلغه (شكرى) أنه ليس فى حاجة إلى (صنايعى) بل إلى (شيال - مناول) فقل له - هذا عز الطلب ، الولد يتيم وليس له مأوى ، رجاه أن يوفر له مكاناً ينام به ، لينتشل إنساناً من الضياع ، فوعده خيراً . .

حاول صلاح ان يوضح ظروف كتابة الرسالة بهذا الشكل - وعلاقته الوطيده بصاحب ورشة النجارة ، أمام وكيل النيابة الشاب ، الذى كان يرفل فى حله جديدة ورابطة عنق متعددة الألوان . . ورغم ذلك كان عصبى المزاج . . قاطعه فى حدة :

- يا أستاذ . . أنا أسأل سؤالاً محدداً ، هذه الورقة بخط يدك ، نعم أم لا . . ؟

- نعم . . لكن . . !

- من فضلك . . استنى شويه . .

نظر إلى الكاتب ، وبدأ فى . . اعادة فتح التحقيق فى الجناية . . رقم . . . بتاريخ . . انه فى يوم . . الاسم . . الوظيفة (لم أعمل بعد)

أقر صلاح بكتابته للرسالة ، وشرع يوضح ظروف كتابتها ، شكرى صديق قديم ونحن اعتدنا . .

س : حامل هذا حرامى ، ماذا تقصد بهذا القول ، التحريات أثبتت أنه بالفعل يتعيش من السرقة . . .

س : وعدنى بأنه سيبذل كل جهده ، فى أى شئ وعدك القتيل وهو لص ليس إلا .

س : وبما أنك رئيس عصابة ، أرجو شموله برعايتك ، فسر لنا هذا القول .

س : وتعليمه الصنعة ، ما هى الصنعة التى سيدربه عليها (شكرى)

س : لماذا طلبت من شكرى ان يبقى الأمر سراً بينكما ومعلوم ان شقيقك حسين المحامى يقف بجانب العمال المتعطلين . . .

مرة أخرى وثالثة . . حاول ان يلقى الضوء على الظروف التى أحاطت بالموضوع ولكن وكيل النيابة الشاب ، كان يمطره بالاسئلة والاستفسارات . .

توقف صلاح عن الحديث ، وطلب حضور محامى معه . .

(. . . وعليه . . يحبس المتهم أربعة أيام على ذمه التحقيق . .)

وضع الشرطى العجوز القيد الحديدى فى معصم (صلاح) ، طمأنه (طه العادلى) ان فى الأمر لبس وسوف ينجلى قريباً ، وقبل ان يتحرك به الشرطى من سراى النيابة ، لمح (محسن سالم - الشهير بالبيضا) أحد أعوان - المعلم عليوه - ينادى عليه فيأتى من أحد الأركان . . بينما كان يقف هناك - دوقه - وآخرين . .

هبط على رؤسنا خبر حبس صلاح . . هبوط الصاعقة ، لم نع ماذا نفعل ، وذهب شقيقه حسين للاطلاع على التحقيق ، وانتشر الخبر فى حوارى (زعربانه) لا أحد يصدق أن - الاستاذ صلاح شريف - له يد فى مقتل (حوده) ، جلسنا كمن يتقبل العزاء ، المقهى ساكت ، حتى العيون جامده لا تطرف . .

* * * * *

كنا لا نزال - نتابع موضوع - صلاح - عندما جاء الخبر - من كوم الشقافه - ان البوليس قبض على (رشدى عبد الدايم) - ولم يمر يومان على حبس صلاح . .

. . . طُلب رشدى لمقابلة ضابط المباحث قسم (مينا البصل) عندما دخل المكتب - هكذا أبلغنا رشدى - وجد (المعلم عليوه) يرتدى الملابس الافرنجيه ويجلس على مكتب (ضابط المباحث) نفس الشارب المهذب بعناية فى خط مستقيم والشفاه الغليظة المقلوبة المضمومة، والأسنان الصفراء ، والنظرات الميته التى ترتفع ثم تسقط فى حركة لولبية . . (. . العقل يا رشدى . . يخلق من الشبه أربعين)

أحس إن ساقيه لا يقويان على حمله . . قال له الضابط :

- تفضل يا سيد رشدى ، اجلس ، رشدى عبد الدايم ، أليس كذلك؟

- خير يا سعادة . . الـ . . الله . ! !

- ومن اين يأتى الخير . . ؟

أخذ يقلب فى بعض الأوراق أمامه دون أن يرفع إليه وجهه . . ثم قال :

- بما أن سعادتك ضابط كبير فى المدرية ، حضرتك ستذهب حالاً إلى هناك وسيوصلك ، رجالك المخبرين ، انتقينا لسيادتك اثنين نقاوة ، سيقومان بتوصيلك فى سيارة مخصوصة تليق بالمقام . .)

فتح رشدى فمه ثم أغلقه ، وجد المخبرين فى انتظاره ، تأبطا ذراعيه وقبل ان يتحرك . . قال له - عليوه - (هكذا أصر ان يذكر اسم الضابط)

- طبعاً حضرتك تعرف ان انتحال شخصية ، جريمة ، وتعرف اذا كانت هذه الجريمة مقترنة بالابتزاز ستصبح جريمة أكبر .

توقف قليلاً ، استوعب كلماته ، ثم واصل السير بين الشرطيين و مضروبا بشومه على أم رأسه .

* * * * *

بحر شاطئ جليم فى ذلك اليوم من شهر مايو ، هائج ، مياهه عكرة بالنباتات ، لها رائحة اليود النفاذه ، خرج (صلاح) من المياه بعد سباحة عصبية ، خذلت ذراعية ، يتعلق ببدنه العارى بعض هذه الأعشاب الخضراء والبنية ،ارتمى على الرمال بالقرب من (المظله) معرضاً ظهره للشمس ، رشدي وطارق بينهما طاولة للعب فوق منضده صغيره ، وبأيديهم القواشيط والسجائر ، كنت قد فرغت من تصفح الجريده (البنك الدولى يرفض المساهمة فى بناء السد العالى ، الغرب يشكك فى أهمية المشروع وقوة

الاقتصاد المصرى على تحمل تكاليفه) تعليقاتنا تتناثر على حواف (قضية صلاح شريف) التى خرج منها بكفالة كبيرة ، أرهقت شقيقه ، واتاحت فرصة لان يبدى (طه العادلى) شهامة غير متوقعه، باع حسين المحامى جزء من حلى زوجته للصرف على (القضية) التى تأسست على شهادة اثنين من أتباع (عليوه) أكدا أنهما اعتادا رؤية (حوده) مع صلاح شريف ، وشهد احدهم أنه رآه بعينه (التى سيأكلها الدود) يضربه على وجهه أمام الناس وحوده ينكس رأسه فى طاعه ويبتعد (كأنه يا بيه المعلم بتاعه) ، حوده رزيل يتقى الناس شره ، ولكنه أمام (صلاح) كان كالأرنب . .)

أقتنعت النيابة من الخطاب ، وشهادة الشهود بشكوكها فى وجود علاقة ما بين مقتل حوده الشقى وصلاح شريف . .

الأمر لم يكن سهلاً وهو يفجر بداخل (صلاح) مفاجآت وأحزان ، الشاب الرهيف الذى تخرج من الجامعة وينتظر ان يتبوأ مكانته ، يحبس أربعة أيام ثم يجدد الحبس خمسة عشر يوماً ،وجد نفسه فى حزمه واحده مع (الضبع والقط والنمر) واشباههم ، مصادفات ، تضافرت لتصنع المفارقه ، هو الذى يقف فى صف الفقراء ويعتبرهم ملح الأرض ، يصبح اثبات ابتعاده (عنهم) فيه براءته ، وقد كان اندماجه فى القاع - دعوه يدعو إليها الآخرين ، وجزء لا يتجزأ من تركيبته النفسيه التى مهد لها بالثقافة والمعايشة مع أفكار الاشتراكيين ، حتى أصبحت تمثل زاداً له ينهل منه الآمال وطموحات المستقبل ، وقد سبح كثيراً ، أقتناعاً بما آمن به ، كيف يهرب منه إلى الناحية المضاده في أول تصادم خلقته الظروف المحيطة به . . هنا كانت المنطقة اللزجة التى تبتلع قناعاته كطين المستنقعات الرخو المتحرك ، عاريا ، لا يجد شيئاً يتعلق به ، يعتمل فى نفسه الحنق ، وقد

نسخر لنتغلب على أسى الموقف المعقد ، ونجد بضع ضحكات ضالة فنقتنصها ، إلا أن الأمر لم يكن يدعو للضحك فى جوهره البائس . .

انعكس هذا الموقف ، بكل فصوله الدراميه على شلة المجعرة واضيف إليه (ماحدث لرشدى عبد الدايم) اثناء حبس صلاح شريف ، كفت الأفواه عن الحديث ، وانفتحت للآهات ، لماذا الموقفين فى وقت واحد ؟ ولماذا (عليوه) يمسك بطرف الحبل ، ونحن لم نفكر يوماً فى قياس ذكاؤه . هل هو غباء منا أن نجلس لنتكلم فى ركن ما ، وعليوه . . سيداً للشارع والحاره ، لا يكف عن الحركة والعمل المنظم ، بينما نحن اكتفينا بالرحلات فى طيات الكتب ، واظهار قدراتنا على جمع المعارف ، ماذا يعرف - عليوه ؟ يعرف مصلحته ، ويقدر ذاته ، ويسخر كل شئ لأغراضه ، دونما إبحار شرقاً أو غرباً . . ويلي ، ويلكم ، ويلنا . . !

* * * * *

إكد لنا رشدى عبد الدايم فى كلمات ، نفضت عنها اسلوبه المميز وشحناته الأدبيه ، بكلمات عارية هى كل ما أمكنه التقاطه من بين هشيمه الداخلى :

(ان ما يمضه حقاً أن (عليوه) قد خدعه ، رد إليه - التمثيليه - القصيره فى المسجد مسرحية من ثلاث فصول ، فقد قام بدور ضابط مباحث مينا البصل بكل اقتدار ، وفى الفصل الثانى قام بدور وكيل النيابة ، يدير حواراً فى منتهى الذكاء ، من قال انه فقط تاجر مخدرات وكان (يتاجر) فى المسروقات ، ثم قام فى الفصل الثالث بدور الشهود الأربعة العدول ، دور اداه وهو مقوس الظهر وقد وضع لحيه طويلة ، وف كل دور أداه من أدوار الشهود أقسم على كتاب الله ، بأنه - باذنيه سمعنى وبعينه رآنى

وانا أنتحل شخصية ضابط المديرية وأبتزه)

خشينا على عقل رشدى أن يضطرب ، استقبلنا رسائله القلقة وقرأناها بداخل الصدور الضيقة .

* * * * *

حينما نشرف على الغرق ، نبحث عن (القشايه) التى نتعلق بها ، ادارت رؤسنا المفاجأة فتخبطنا قليلاً ، إلا أن - (فضل) اهتدى لمنفذ ، سلك الطريق إلى والده ، حثه على التدخل السريع ، تصادف - أيضاً - وجود لحظة الصفاء بين الوالد وابنه المتمرد ، أو ربما حاول (الولد) إيجادها للتغلب على الموقف الشائك بينهما ، فالإبن يريد لوالده - كسر قيده ، والوالد فى قرارة نفسه يود هذا ولكنه لم يحدد بعد الوقت المناسب ، أو قل ان فرصته لم تحن بعد ، فكان يرى أن ولده - فى جانب الصواب ولكن غموض الموقف العام كان يؤجل قراره ، وإذا (بالشيشينى بك) يجد فرصته ليثبت لابنه - على الأقل - انه لايزال - هنا - ويبرهن له أنه لم يكن قليل الحيله يوماً ، استخدم اتصالاته - ليقتنع فضل ، أنهم على الساحه فلا يلومه على الابطاء الذى أغضبه ، مد ذراعاً قوية وانتشل (رشدى) الغريق فتعلق بها . . وحفظ التحقيق . .

فى أحيان كثيرة ، كانت شلتنا المتناقضه ، تجعل من الشيشينى بك وأمثاله مثاراً لسخريتهم ، فهو قبطان القارب الذى يحمل ثروات الباشوات المفسدين إلى بر الأمان - من حديث فضل عنه - انه يصرح بأن حركة الجيش ما هى إلا سحابة صيف عابرة وتعود الأوضاع كما كانت ، فالإذاعات السرية المناهضة تتضاعف ، (والبكباشى) على كف (عفريت) خيوطه ف عواصم الغرب - وكأن الضغوط التى تمارس ، فى عدم تسليح

الجيش أو المساهمة فى المشروعات الكبرى ، كانت من أجل ان يتمهل (الشيشينى بك) فى اتخاذ - الموقف النهائى . .

* * * * *

الشكاوى المجهولة التى قدمت للنيابة وأرسلت إلى أجهزة الدولة ، كان بعضها يتحدث عن (مجموعة) تجتمع إجتماعات دوريه ، وتدير نقاشاً أشبه بندوة أسبوعية يحضرها عدد يزيد عن الخمسة فى مكان عام وبدون إذن مسبق ربما كانت تناهض الحكم أو تبث الفتن بداخل زعربانه ، الحرص على الأمن العام فى هذه المرحلة - الدقيقة - أدى إلى ارسال تقارير حول هذه الشكاوي التى تتهم شخصا يأتى من كوم الشقافه اسبوعياً لعقد إجتماع في مقهى فخرى الاكتع ، إلى جهات الاختصاص ، التي لم تتوان فأرسلت رجال الأمن متنكرين فى ملابس باعة وسمكرية ، وإذا بالشكوك تتحول إلى حقائق ، تضمنت تقارير المباحث ، وجود المؤامرة وحضور المتآمرين أسبوعياً فى مواعيد محددة ، تقترب رؤسهم حول المائدة المستديرة فى الركن الكابى بالمقهى ، يتهامسون تارة ويتصايحون - لزر الرماد فى العيون - تارة أخرى ويمثلون أنهم زبائن يحتسون الشاى والقهوه ويدخنون المعسل ، ويهتم بهم صاحب المقهى - الضليع معهم - اهتمام خاص وحتى وهم يغادرون المقهي يستمرون فى الكلام ، يمشون ببطء ويتوقفون حول أحدهم ، ثم يواصلون السير حتى يتفرقوا بعد منتصف الليل ، عجز رجال المباحث من المخبرين عن فهم بعض الكلمات التى كانت تتناهي إليهم ، ولكنهم أكدوا انها بالقطع شفرات السياسين ولهجتهم المميزه ، عندما يتحدثون بكل جزء من أجسامهم ، والمستمعون يستغرقون فى الانتباه كلاعبى القمار المحترفين على الموائد الخضراء . .

(فتح الضابط المكلف الملفات ، دون فيها ما يصله من معلومات وتحركات) ما عليه إلا تصنيفهم ، هل هم شيوعيون أم جماعة الإخوان)

(اريد كافة المناقشات بالتفصيل ، حتى نرى هل هم يسار متطرف أم يمين رجعي)

عند تفريغ التقارير ، أختلط على الضابط الأمر ، انهم يتقاطرون من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، وعندما عرض نتيجة عمله على الضابط الكبير ، انحصر جل اهتمامه فى اسم معين . .

- آلو . . طنطا ، اعطنى سراى الشيشيني بك بسرعة . .

* * * * *

لم يستجب فضل لدعوة والده بضرورة السفر إليه فى طنطا ، غامت لحظة الصفاء ، أضطر ان يحضر أبوه إلى الفيلا بستانلى ، وأرسل من يحضره ، وعندما حضر متبرماً ، أبلغه انه تلقى تحذيراً من أحد أصدقائه بالأمن العام ، وطالبه بالابتعاد عن هذه الجماعة المتحرفة وعدم حضور (مؤامراتهم) ، سخر فضل من تحذيرات صديق والده ، وحاول ان يبين له أنها مجرد لقاءات بريئة لأصدقاء ،يجد بينهم نفسه ، ويرتاح لوجوده معهم الوالد استشاط غضباً ، هدده بأنه سوف يرفع يده عنه إذا ما حدث شئ ، وهو يعلم ان تهديده لن يجعله يرضخ ، اضطر ان يصرح له ، بأن المجموعة مراقبة ويحتمل القبض عليهم جميعاً لسبر أغوارهم واجهاض مخططهم ، وانه يخشى القبض عليه بينهم ، نقل(فضل) هذا التحذير إلى صلاح وباقي الشله . . واقترح مؤقتاً كابينة البحر فى أوائل مايو . . ولا يزال الشتاء يلملم أذياله . .

أحضرا فضل وطه العادلى الطعام والبيره من ثلاجة سيارته . .

وعلى رمال الشاطئ التى يصقلها الموج الهادر ، تجمعوا بألبسة البحر والفانلات ، بأصابعهم - على الرمل - شرعوا يخططون ، كيف يواجهون (عليوه) و . . .

ولم يتبين أحد ما يعانيه طارق ، عاطفياً فقد تواري مصير (تقى) فى زحمة الاحداث والخطوط التى كان الموج يصر بأن يأتى حثيثاً ومندفعاً من بين سيقانهم ويزيل معالمها . . ويعيد الرمال مصقوله دون آثار . .

* * * * *

(. . . لا ليس القدر ، بل ثوابت اضفينا عليها ثوبا من القداسة ، لم نحاول ادخالها (المعمل) . . كان طوال الوقت مزدحم الرأس بالأوهام والاحلام المستحيلة التى لا تتسع لها الدنيا ، لذا فقد انفلت إلى الفضاء الخارجى ، أفلت من الجاذبية ،فثبت هناك بعيداً ، قمراً ، بدون أجهزة استقبال أو ارسال ، وهو اصغر من أن يعكس ضوء الشمس . . .)

فقرة ثانية . .

(. . .ما موطنى إلا انتم ، وأنت . . اذا ما ضقتم بى ، فقدت الانتماء ، والمرفأ ، وضاعت هويتى وجواز السفر ، اعيدينى إلى مقلتيك لأجد مسكنى ، وسأرتدى ملابس الجنود المشاه ، أحمل رايتك ، ارابط على ثغورك ، فأنا لا أعرف إلا الجهاد والصلاه من أجلك ، كما أنى لا أخشى الاستشهاد على ترابك ، لا تمضغونى كشئ تافه ، وتتفلونى فى منفضه السجائر مع البقايا . .)

فقرة ثالثة . .

(. . نعرفه . . لديه ذات تزحف على الارض ، تتسلق الجدران ، تسابق الديدان والصراصير ، يضع في أنفه خزاما ويسلم مقوده لمعتوه

يفضل السير في الجانب المظلم من الطريق ، هوايته القاء العقول المضيئة في سلال المهملات ، تسلل إلى طعامنا ، فأمتلأت ساحتنا بالمرض ، ارغمنا على حط الرحال والانشغال في منتصف الطريق ، كبل خطوتنا ونحن في الطريق إلى النجوم . .)

قرأ المحقق الفقرات الثلاثة من كراسة ذات غلاف أزرق ، وسأل ببع متهكماً :

- الغلاف أزرق ، الا ترى معى ان اللون الأحمر يناسبه . .

برغم انه ابتسم إلا انى كنت حزيناً على فقد هذه الكراسة التى كنت أدون فيها خواطرى ، بعدالمناقشات الحارة مع الصحاب ، وقد أهمل بعضها فيما بعد . .

عاد يقول :

- بالتأكيد ، كتبت الخاطرة الاخيرة عن (محمود عبد المنعم)

لماذا بالتأكيد ، قد أكتب لنفسى أشياء ، تتضمن كثيراً من الجزئيات الغلاف أزرق . . لماذا ، وهل لو كان أحمر . . كان قد وجد ضالته . .

عاد يكرر السؤال . .

هززت رأسى . . فقال :

- هل كان ذلك قبل اطلاق الرصاص على (الريس) فى المنشية ؟

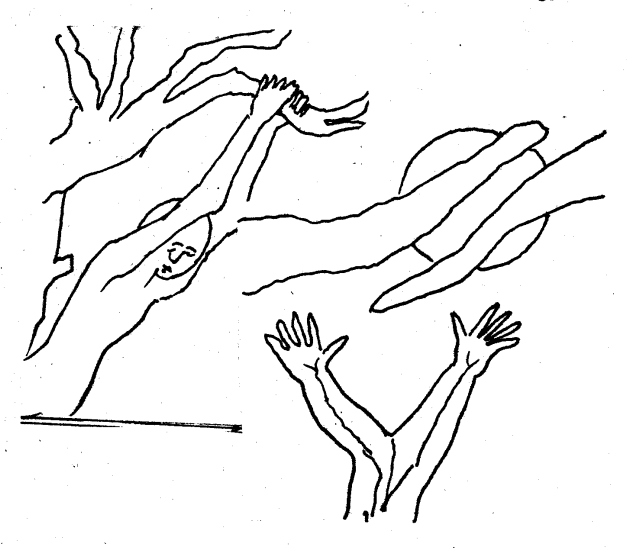
فإذدحمت بالذكريات . . ولم أجب . .

* * * * *

ارسل (عليوه) رجاله ، افتعلوا معركة مع (فخرى) ساعة الظهر ، وحطموا كراسى المقهى والزجاج والشيشات والأكواب ، قبل ان يتركوا المكان ، قال له (دوقه) :

- اسمع الكلام ، وإلا كل يوم من ده . . بكى فخرى أمام مقهاه المحطمه ، واخذت (حميده) ترسل دعواتها على أولاد الحرام ، وتستمطر عليهم اللعنات ، سرأ جمع تجار السوق بعض المال ، واضاف فضل الشيشينى وطه العادلى مبلغاً ، واعطيناه النقود ، عندما رأى المبلغ ، مسح عينيه فى كمه ، نظر إليهم ، ثم عاد يبكى ، قال له صلاح :

- لا عليك يا فخرى ، فرصه تجدد القهوه ، اوعى تنكسر وتوافق (عليوه . .)



١٣ - نسائم الربيع

في ميدان المنشية الواسع ، احتشد الناس ، امتلأ عن آخره ، كان حصان محمد على وقد رفع ساقه اليمنى الأماميه والساق اليسري الخلفيه متأهباً فوق قاعدته الرخاميه ، للتحرك وقد جلس فوقه الوالي فى كامل حلته العثمانيه متجها إلى الميناء الغربى . . كأنه محمول على آلاف الهامات الشاخصه إلى شرفة البورصة حيث - عبد الناصر - خلفه فى نفس الاتجاه ، يلقى خطبته المعتاده . .

وعلى الطوار اليمينى - بالقرب من المنصة ، ارتفعت يد مرتعشة لشاب تحمل مسدساً . . واطلق عدة أعيره في اتجاه الرئيس . .

ارتج الجمع المحتشد ، ندت آهه ، شقت اجواز الفضاء ، للحظة إلتفت (محمد على) خلفه . . ناحية شرفة البورصة ، وقطب فى غضب ، فهو أيضاً - مثله - كسر احتكار السلاح يوماً . . وهو أيضاً وندت طموحاته . . نفس الاعداء - حددوا له اطاراً لا يتجاوزه . . وربما ارتاحت اساريره ، عندما عاد يسمع صوت الرئيس من جديد مكملاً خطابه (كل يقف فى مكانه ، اذا قتل . . عبد الناصر . .كلكم جمال عبد الناصر .)

عندما فشلت المؤآمره . . ابتسم الوالي وارخى لحصانه المقود وعلى الأعناق المشرأبه . . بقى . . متأهبا - منذ ذلك الحين - ولكنه لم يغادر الميدان .

* * * * *

. . أختفى (محمود عبد المنعم) من زعربانه ، قيل انه عبر حدود

ليبيا السنوسى وقيل انه قد قبض عليه ، ولكنهم عندما فتشوا بيته لم يجدوا شيئاً من الاسلحة التى كانت الصحف والمجلات توالى نشر صورها مع اسماء وصور المقبوض عليهم من (الجماعة) . . اقفلت شعبة باكوس وتجدد أمل (طارق) فى الوصول إلى (تقى) . . خاصه وان الشيخ ابو الحسن ، قد تبدلت مواضيع خطبه ، واخذ يشيد برجال الثوره المباركة ويدعو للرئيس بطول العمر ويرجو له النصر على أعداء الوطن من الشيوعيين المسكوفين ! .

* * * * *

تم الاحتفال بادخال المصابيح النيون فى (المجعره) بدلا من المصباحين الصغيرين اللذين كان يمتد سلكهما سبعون متراً . . وأحدث (فخرى) تحسينات وتعديلات بداخل المقهى ، اضاف حجرة أخرى ونقل النصبه من مكانها إلى الداخل . .

أثناء هدم النصبه القديمة ، عثرت شقيقته زينب على صندوق خشبى صغير بفتحه وجد به (سبعمائة جنيهاً وربع قرش حشيش وقطعة أفيون جافه) . . جعل فخرى الأمر سراً بينه وبين شقيقته ووعدها بشراء اسوره ذهب إذا حافظت على هذا السر فى طى الكتمان . . بعدها . . اشترى موائد وكرسى جديدة ، وأضاف عل يالجدران المرايات وعلى الباب (تانده) ويلط الرصيف ، وعلق لافته كبيره (قهوة فخرى الاكتع) ومما تبقى من الكنز ، كان يشترى (عجلا) يسمنه فتره ثم يذبحه فى دخله باب الحارة المجاورة للمقهى ، يباع لحمه طازجاً للمعارف والتجار . . بسعر أرخص .

وكنا نندهش ، لحالات الكرم الحاتمى التى تلبست (فخرى) وهو يصر على ان نأكل كل ما فى الصينية من اللحم المحمر ، وخاصة عندما يكون

(رشدى) معنا ، وكانت (حميده) تتفنن فى اعداد الطعام لنا وتلح في أن ندخل إلى المنزل ، إلا أن (رشدى) كان يفضل تناول الطعام فى (المقهى) واعتقدنا ان ذلك مما يتيسر لفخرى من مكسب بيع العجل بعد ذبحه . . بعد عدة شهور . . أقسم (فخرى) اننا قد أكلنا عجلاً . .من لسانه حتى ذيله ، واستغربنا عندما قال :

– العجل ده ، ثمنه مائة وخمسون جنيها . . !

علق رشدى عبد الدايم

– ماذا تقصد يا قرصان . . هل ستحصل منا ثمنه . .

وقال طارق :

– انا مقدم على زواج ، لم أطلب من أحد ان يفسد نظامى الغذائى ولن ادفع مليماً . .

ضحك فخرى وطمأن الجميع

– . . أنا لم ولن أطلب من أحد ثمنا اللحم . . ولكن خليكوا فاكرين . .

واستمر في تقديم- نفحاته الحاتميه . . على فترات

* * * * *

كان ربيع وطارق قد حصلا على شهادة اتمام الدراسة الاعدادية نظام السنة الواحدة منازل ، والتحقا بالمدرسة الثانوية المسائية ، وبعد ثلاث اعوام ، حصلا على الثانوية العامة ، احتفل بهما الاصدقاء ، فى نفس العام الذى فشل فيه العدوان على بورسعيد ، انتسب ربيع الى كليه الآداب وفضل طارق كلية التجارة

قال صلاح : طارق وربيع يفاجآننا من حين لآخر بالنجاح من صف

إلى صف

قال طارق : لا تندهش ، الريس يقدم فى كل مناسبه مفاجأة للشعب

علق صلاح : أرجو ان لا يكون الريس قد تأثر بكما . .

قال طارق : مع احتفالات النصر . . خطوبتي على (تقى)

* * * * *

عندما قام (طارق) بحركته المجنونه عاريا ، كانت (تقى) فى الثانية معلمات ، ومنذ ان أجابت عليه فأفحمته ، أغرم بها وعزم على الزواج منها ، فكف عن الجنون ، وعرفت (تقى) الطريق إلى والدته ، متعلله بتفصيل بعض الأثواب المنزلية عندها ، كانت أم طارق - بدون قصد - تتحدث عنه ، فتطرق الفتاه . . بلا تعليق . . ومنذ حادث غرق سفينة (خليفه القنائى) واستغناء (الشركة) عن خدماته كطباخ وقد لازمه ذلك السعال المتواصل ، فهو فى الصلوات الخمس يجلس فى الصف الأول خلف جاره الشيخ ابو الحسن ، ويسير معه من البيت إلى المسجد فجر كل يوم ، ومن هنا ، نشأت بينهما صداقه الحضور ، الشيخ كان يستمتع بذكريات (ابوطارق) عن البلاد البعيده التى زارها ، ولما نضب معينها ، تحول للحديث عن ولده (طارق) . . وكيف انه واصل تعليمه بنفسه حتى أصبح له مكاناً فى (كليه التجاره) ولم يكن يضايق - الشيخ - إلا ان خليفه القنائى ينسب نجاح إبنه وصفاء ذهنه وكفاحه فى العمل والجامعة إلى (الريس) - هذا ذكاء من ولدك ، وهل (الريس) سيذاكر له دروسه . .؟

- وما فائده ذكاؤه ، إذا لم يجد له مكاناً فى المدرسة الثانوية والجامعة بدون تكلفة تذكر . .

ويتحدث عن علاقة - طارق - برجال الحكم الجديد ، لا يمر اسبوع

إلا ويجتمعون معه بل أنهم يطعمونه - لحما - يأتى إلى البيت كل ليلة ، تتعشى يا طارق ، شبعان أكلت لحماً مع أصحابى ، ولا حديث له إلا عن - السد العالى ، والفرنسيين فى الجزائر ، واليهود فى فلسطين والانجليز فى جنوب الجزيرة العربية ، وكان الشيخ ابو الحسن قد رآه فى ملابس الحرس الوطنى وبيده بندقية أثناء العدوان ، قال فى نفسه . . .ربما كان (طارق) عضوا بالاتحاد القومى فمن الضرورى ان يكوّن للثوره - تنظيمها السرى - فى كافة المواقع المدنية ، كما كان لها تنظيمها السرى فى الجيش ، يتنكر فى الصباح فى زى عامل ، وفى المساء فى زى طالب جامعى ، يجتمعون به ويطعمونه اللحم ، وابوه الساذج يكاد يفضح ابنه ، ويفضح تنظيمات الثوره . تلك التنظيمات السرية التى تبطل المظاهرات وتحيلها إلى هتافات تأييد هستيريه للريس ، ومما لا شك فيه انه هو التنظيم السرى الذى قاد عمليات الفدائيين فى بورسعيد ، من يستطيع خطف الضابط قريب ملكة الانجليز سوى هؤلاء المتخفيين تحت الأرض ، اللهم احفظنا وابعد شرهم عنا يا كريم . . . !

* * * * *

طارق . . حاول محاولات - باءت بالفشل - للقاء (تقى) والحديث معها بالمدرسة الابتدائية التى عملت بها ، كانت في كل مرة تهرب منه ، أو تخرج مع بعض زميلاتها ، مرة واحدة فاجأها ، كانت عندالباب تهم بدخول حوش المدرسة ، وقف قبالتها واستجمع شجاعته وصاح فى وجهها :

- آنسه تقي . . تتزوجينى . . ؟

بهتت الفتاه ، تلفتت حولها ، ثم ابتسمت ، وتجنبت طريقه وصعدت سلم المدرسة عدواً .

صاح خلفها :

- السكوت علامة الرضا . . ؟

وعندما اختفت . . وقف حائراً . . يخاطب نفسه . .

- ام علامه الرفض ، رفض ؟ . . لقد ابتسمت ولم يبدو عليها الرفض . .

جاى . . يا شيخ ابو الحسن . . جاى . .

* * * * *

(بنفسى . .، لم أصحب معى أحد ، اعرف ابى وازمة صدره التى تضيق خلقه ، لو كحها سيعميها ، واعرف امى لو رفضوا طلبى أمامها ينقح عليها وجع القلب ، ذهبت إلى الشيخ ابو الحسن ، دخلت المندره فى السلاملك ، الرجل فتح لى الباب ، شافنى أمامه ، ضرب لخمه ، ومن غير مناسبه أخذ يتكلم عن الثورة المباركة قبل ان نجلس على الكنبه قال كلاماً مختلطاً بدون ترتيب ، فهمت ان الرجل قد تأثر بتخيلات والدى التى كنت لا أنفيها طالما هى تسعده ، قدم لى الشيخ فنجان الشاى واقفاً قبالتى ، كنت اضطر للوقوف فيقسم أن أجلس ، ذكرنى باليوم الذى رآنى فيه ارتدى افرول الحرس الوطنى وبيدى البندقيه ، اخذ يردد ، الحمد لله غاروا فى داهيه ، هذه بركة الناس الصالحين ، الله لا يهزم مصر وبها آلاف المآذن حمل فنجان الشاى من الطبق الصينى ، تناهت لى صكات الفنجان فى الطبق ، يد ابو الحسن ترتعش وكذلك صوته ، لماذا هو منفعل هكذا ، تمنيت ان يهدأ حتى اتمكن من الحديث معه ، انا أيضا كنت سايح فى عرقى وخوفى ان يغلق فى وجهي باب الرجاء ، قلت :

- ارغب ان اتحدث مع فضيلتك فى امر هام يخصنى

كاد يقف على الكنبه ويهتف (يعيش الريس ويسقط اعداء الثورة).

شغلت (البالوظه) ولم اترك الفرصة تفلت - خليفه القنائى كان قد حرث الأرض ومهدها جيداً :

- أنا اعمل فى شركة النحاس ، ومرتبى

- يا ابنى أنا أعرف عنك كل شئ

- وطالب بكلية التجاره . .

- ابوك صديقى العزيز . .

- جئت وحدى لأجل . . وانشاء الله العائله . . سوف . .

- نحن أهل . .

- أطلب القرب منك (بدى) أتزوج الآنسة تقى . .

كان الريس قد استخدم (بدى) وانتشرت على الألسنه . .

فوجئت بالرد . .

- وماله يا ابنى

- لكن ظروفى . .

- يا ابنى أناعارف عنك كل شئ . . حتى اللحم الذى تأكله مع المسئولين . .

. . لم أصدق أن الموافقة تمت بهذه السهولة . . اعتقدت انى أحلم فقد حلت بركات المجعرة . .



١٤- النوء تحت حمل الجسد

(مرعى العصيدى) الذى أطاح بالخنوع لأثرياء النجع ، ومضى مع مياه النيل منساباً إلى الشمال ، لا يحمل سوى قوة ساعديه وقلباً تقبضه مخاوف الانكسار فى الغربه وخيبة الأمل والعوده - للأهل خالى الوفاض ، فر ليلاً ، وجد فى العمل الجاد (مؤهلاً) يرتقى به من (عامل) بالمصبغه إلى (مباشر) ماكينات حريق الوبر ، ينتشى بالاستمرار وقد اعتاد ان يسمع اسمه مقروناً (بالريس) مثله مثل رئيس الصاله (المهندس) ، يفخر بأن البكوات أصحاب المال يلقون اليه - وحده - بالتعليمات فتصبح كلماتهم - قدسيه ، لابد وان تنفذ بحذافيرها ، فهو الذى يتلقى العتاب إذا قصر أحد من العمال ، سعيداً وغاضباً من نفسه ، وإذا ما أجاد وزاد يتلقى كلمات التشجيع أوسمه ترصع نفسه ، ويوم - يمشى بجانب - الساده - ويضع احدهم يده على كتفه ، يود لو رآه عمدة النجع ، والأقارب وهو فى أوج زهوه . . عشرة أعوام - عامل شال وحط وانكسر وسطه ، وخمسة أعوام (مباشر) . . ومن اليد إلى الفم . .

* * * * *

فى عمل الوردية المسائية ، تنقطع رجل المديرين الكبار ، يجد نفسه يكبر مقامه ويصبح (مرعى الصعيدى) الرئيس المسئول . . يحتفى به - العمال - ويستشيرونه فى كل كبيرة وصغيرة والعامل (رماح) من ضواحى البحيره ، يجيد صناعة كوب الشاى الاسود - اعتادوا زردته على مغالبة السهر ومقاومة نعاس الفجر الذى يهاجم الرؤس ويسدل الجفون بقوه . . برغم

قرصات البعوض الوافد زرافات من أحراش ترعة المحمودية ، متسللاً عبر نوافذ العنبر ، مندساً تحت ظلام الآلات الضخمه وخلف رصات ولفات القماش ، وكوب الشاى قد يبلع به البعض لقمة الجبنة القريش وشطر الطعمية البارده ، ما كاد يفرغ - رماح - من صب اكواب الشاى الاربعة ويطفئ (السبرتاية) ويخفيها فى مكانها الأمين ، حتى يتجمع الأربعة ومعهم الريس مرعى حوله ، ويقدم الكوب الكبير له ، هى رشفة أو رشفتين وإذا بالبيك المدير

- اعتادوا ترصد حضوره ولكن هذه المرة أنشقت الارض عنه ، وهو الذى لا يتكلم بلسانه مع العمال ، يلعب الحظ السئ دوره المعتاد ، ويقف على رؤسهم مستشاطاً بالغضب عند رؤيته أكواب الشاى فى ايديهم إذا هناك ناراً قد اشعلت ، وهذا جرم . . . ، ركل بقدمه كوز الشاى المربوط بالسلك فطار بعيدا ثم سقط يتخبط بتفله وبقاياه على بلاط العنبر لافتاً أنظار الذين يعملون هنا وهناك بشدة واقتحم يلطم احدهم بظهر يده ، فيتحطم الكوب على شفتيه ، تنزف سنانه ، لا يشعر بالألم يجرى هلعاً ، ثم يستدير فى لمح البصر ويدب بوز حذائه فى مؤخرة عامل آخر فيسقط مبتعداً . . يهرب الآخر ، وتشل المفاجأة الريس مرعى ، الذى تجمد الدم فى عروقه وتجمد فى مكانه ، قيدته استدارة جسد (البيك) إليه ، تقدم نحوه ، مبدياً قمة شراسته ، متصلب الكف ، هائج ، تضيق على (مرعى الصعيدى) فرصة الافلات تتلاشى المساحة أمام المصير المحتوم ، لم يفكر (المدير) ولو للحظة ان هذا الرجل الذى يهم ببعثرة كرامته انه هو الذى عاصر المصنع وليداً ثلاث عنابر غير مكتمله يحيطهما سلك شائك ، وكان يخوض المستنقعات فى الشتاء والطين اللزج فى الصيف للوصول إلى عمله

النائى ، لم يع رد الفعل الذى يمكن ان يحدث من (صعيدى) يعمل بالاسكندرية ولا يزال يعيش بكيانه فى النجع . .

تمنى (مرعى) لو ان البيك يتوقف ، يخصم له عدداً من الأيام ، يشتمه ، يوبخه ، رجاه بداخله ان لا يرفع يده ويلطمه كما فعل مع صغار العمال ، لا يلمسه فى هذه اللحظة بالذات التى - تلقائياً - تناول أثناءها من فوق المنضده المجاورة - مفتاحاً معدنياً كبيراً وتصلبت أصابعه عليه ، النار كانت قد انطفأت تحت كوز الشاى قبل دخوله ، ولم يتبقى سوى آثارها التى اطاح بها ، فى هذا الكفاية ، الدم الذى اندفع من فم (زهران) كاف . . فى النجع يقتلون لأقل من هذه الأسباب . .

توقف (البيك المدير) عندما سقطت عيناه على المفتاح الكبير وعلى النظره الحاسمه التى قررت الفعل مقدماً . . رسالتها المحذره فى بريقها الخاطف صرخت فيه (قف عندك) انفاس المدير الغاضب ، تلفح صدره ورقبته وقد اندفع حتى التصق به ، وعندما لم يجرؤ على ضربه . لوى فمه وصرخ فيه . .

- أنت مفصول ، أمشى من هنا حالاً . . طلعوا ابن الكلب دا بره المصنع .

* * * * *

وقتها هدأت نفسه ، وبعدها . . بكى (ابو ربيع) بدموع حقيقيه . . حبس نفسه فى بيته ، وعندما شاع خبر فصله من العمل ، أزدحم البيت بالمعزين فى هذا المصاب الجلل ، قطع العيش لدى الذين لا مدخرات لهم ، يعنى فى بشاعته ثقل الموت . . وسوف يحرم من شهادة (حسن السير والسلوك) وينتشر الخبر لدى أصحاب الأعمال الآخرين ، قد يغفر للص على

ان يبدى توبته ، لكن لن يغفر لعامل ، حاول ضرب صاحب العمل وأشعل ناراً بجانب الالات . . لابد وان يكون أمثوله وعبره للذين يعملون فى المصنع والذين يتكدسون أمام الباب الكبير فى يوم محدد من كل اسبوع طلباً للعمل ليراهم - العمال - هناك دائماً بأشكالهم البائسه ، دائماً هم على الأبواب حتى لو لم يحتاج العمل لعمال جدد ، وجودهم بهذه الكثافة له دور ، حتى لا يتمادى الذين يطالبون بتحسين شروط العمل - أو يجرؤ أحد علي رفع الرأس من فوق الآله .

* * * * *

فى أعتاب (أزمة) أبو ربيع . . ووقوع حمل المسئولية علي كاهل (ربيع) الواهن .

دعاه (طه العادلى) للتنفيس عن النفس مع الشلة . .

فعندما تأتى البواخر من وراء البحار محملة بصناديق زجاجات الخمور الفاخرة ، يكون لأسفل مقعد السيارة الفولكس التى يقودها (طه) نصيباً ، عدداً من الزجاجات التى تطلبها (المعاينة) تستقر فى (بيت)لافيزون ، وتصل الدعوات ، ويتحلقون حول المائده العربى القصيرة المنقوشه بالصدف ، تنتصب تلك الزجاجات المضلعة متباهية ببنورها الكريستالى بين أطباق شرائح اللحم والسمك والبطاطس المقليه والخيار المملح والطازج ، والمكسرات التركية ، ومن رشفات قعر الكوب الثالث ، تتصاعد أبخرة (المُدام) تلف العقول فى غمامتها الوردية ، تلتهب الأمعاء وتتلاشى الرؤس ، تسافر حول أخطر المواضيع وأهونها شأناً . . تسبح فى فقاقيع الضحكات التى ترج الادمغه فتزيد من خلط الأقوال . . فى العادة يتحدث الجميع ولا يسمع أحد . .

قالوا :

(الفشل يمسك بيد الخيبه الثقيله ، طالما كان (شيخ المنسر) لديه الاف الأقنعه وألوان قوس قزح ، وأرديه الطبقات الثلاث بفئاتها الأثنى عشر . . لا . . ليست التى تزاحم القولون العصبى . . يا مجنون . .)

(نزال الفرسان لا يصلح قانوناً لمن يطعنون الآخرين فى الظهر وفى ظلام النواصى من يجيد لعب السبع طوبات . . لعبه بسيطة وشعبية ، يجب أن نعمل على انتشارها لتكون مثل لعبة كرة القدم ، أنتِ ترص الطوبات السبع ، تحت تهديد الكرة عليك ان تحاذر ان لا تضرب من اليسار او من اليمين . .)

(ستتطلع دائماً إلى العمائم تسير فى مقدمة الصفوف ، عمائم تستقر تحتها عقول من خلايا ، وليست من حجر صوان ، تختزن طاقة للتفكير ، أقول عقول وليس عجول ، لا تفهمني خطأ ، فهم الذين ساروا وأثاروا الثورة الأولى والثانية أيام الفرنسيس يا خرسيس . .)

(مشكلتنا الرئيسية . . ان البعض يعمل - خلفاً در - الناس تمشى إلى الأمام وهم يعودون إلى الخلف ، بذلك نفقد نصف الوعى فى الصراع والنصف الآخر فى الغيوم . .)

(ليس انذار بولجانين ولا عتاب ايزنهاور لغرور مستر ايدن ، وتهور مسيو موليه والباش دلوعه بن جوريون السبب فى وقف العدوان ، السبب فى وقف العدوان ، لا . . لا . . ولا صفقة الاسلحة التشيكية ولا حتى دخول حظيرة الاحلاف مع الحلاليف الأخري ، لا . . ولا نظرية ملئ الفراغ اعتقد ان العدوان تم بناء على تقارير الشماشرجيه الذين اقسموا برأس بابا الباشا ، ان فى بداية ظهور جزء - قد كده - من أول طائره انجليزيه

فرنسيه فى سماء الوادى ، سيهرب (الكولونيلات والكوستيلات) إلى أمريكا الجنوبية محملين ببعض ما خف حمله وغلا ثمنه من جواهر الاسرة العلوية كريمة المحتد ، طاهرة المنبت ، لكن للأسف الشديد - لا . . الاسف لأجلهم لم يذهب الكولونيل إلى المطار مع أصحابه الاحدى عشر . . الاثنى عشر . . ويهرب

. . الذى حدث ، خيب آمالهم فى عودة الملك الطفل ، عندما ظهرت كل الطائرات فى السماء ، والمدمرات فى البحر ، والدبابات فى الصحراء ، الكولونيل أخذ ذيله فى اسنانه وجرى على الأزهر ، وطلع على المنبر ، انا كنت قاعد تحت رجليه ، شايفه ، مارد أسمر ، عينيه بتلمع فيها الدموع ، لا لم يكن يبكى ، هذا كان اصراراً ، ملأ قلبى بالحب وهو يزعق من جوه قلبه ، سنقاتل ، سنقاتل ، سنقاتل . .

وقبل ما يكمل الكلمة الثالثة ، والثالثة ثابته ، استدارت الطائرات والبواخر والدبابات وعادوا من حيث اتوا ، حينئذ وقع الشماشرجيه فى حيص بيص ، انقسموا فريقين فريق ذهب مع الطائرات والبواخر والدبابات يفسحون لهم السكه ، وفريق الشيشينى وابنه فضل ، يلعب الآن معكم .

(اذدر فضل كأسه مبتهجاً بعد أن ألقى بالجزء الأخير من (التحليل) بل ان البعض اندهش . . لطلاقته . .

صفقوا مهللين . . وضحكو لأتفه الاسباب . .

* * * * *

فضل . . يهدئ من حالة الغضب العائلى ، بعد وضوح موقف - الوالد - من العدوان الثلاثى واظهار مساهماته المادية والمعنوية ، مع طابور طويل من الذين نفضوا أيديهم من حلم عودة الملكية ، أو جمهورية

الباشوات ، رحب بهم - اساتذه التكتيك العسكرى - وافردوا لهم - مساحة على ساق السلطة والحكم ، فجلسوا فى وضع أفضل . .

(أغضب التيار اليسارى والليبرالى فراح يتخبط محتجا حتي حدود الواحات)

سلم الشيشينى بك ، راية النضال إلى ابنه فضل ، الذي اتقن لغة العصر السياسية والاجتماعية ، فرحل مع قافلة (سينما جديده) لفلاح كان فائت ويغنى من جنب سور (القصر) فوضع له كم وردة فى طبق بنور - وهذا لم يكلفه شيئا - كما أن - مكتب التصدير والاستيراد وتوكيلات الشركات الاجنبية بقيت قائمه - استورد الأفلام الخام للمؤسسة ، والبويات والزنك والمواسير والسمك المجمد ، إستعان بصاحبه - طه العادلى وريث مهارات التاجر الزعربانى الحويط ، ينميان سوياً - الثروة ، وتركا (لنا) تنمية الثورة . . وشئ لله ، وعطف على أمثال ، الرجل الصعيدى المتعطل عن العمل وابنه أوشك على ختم الجامعة ، انتساباً ويعمل أثنى عشر ساعة كل مساد بلا كلل ، لكن (مرعي الصعيدى) لا يهدأ له بال ، بات يحلم بالعودة إلى عمله ، نفس عمله الشاق فى المصبغة فى عين العنبر ذاته ، يأمل ان يدخل على نفس الوجوه التى فصل أمامها ، ويسلم عليهم ويقول لهم ، عبد الناصر أعادنى للعمل . .

فى كل الشكاوى والخطابات التى يمليها بنفسه ، يصر علي ان يبدأ الخطاب . .

(إلى الأخ العزيز جمال . . ينصرك ربنا ويخليك ذخراً للفقراء والمحتاجين ، لكن انا زعلان أشد الزعل منك ، قد حبى لك اللى ليس له حدود ، أرسلت إليك جوابات كثيرة ، اعرض عليك حالى ، وللآن لم أتلقى

منك أي رد . واحد صاحبى أرسل إليك وطلب صورة بعتها ، أرجو ان يكون المانع خيراً ، أنا عارف إنك شايل هم الدنيا وحدك ، طيب ليه يا ريس ، ما تخلى الناس اللى حواليك يشيلو معاك ، لأجل تفضى نفسك للبلاوى جوه البلد ، أهو . . أنا فصلت من شغلى فى عهد الثورة المبارك ، يوم ما قلت (ارفع راسك يا أخى) كنت أنا مفصول من الشغل ، وانت يا أخى جمال تعرف احوالنا ، وخابر زين ارتفاع المعيشة واليد البطالة نجسه ، لا أحد يعطيها أو يسلفها ، الناس تعطى القادر على السداد ، وأنا إذا سلفونى كيف أسدد ديونى ، وربيع ياريس صغير وبيتعلم ولا يقدر يمشى البيت وحده . . يعنى يصح . . انى . . أقول لولدى : هات ثمن الدخان والله عيب وانت صعيدي ولا ترضاها ، ساعات أندم وأقول فى نفسى ، يا واد ، كان ضربك البيه قلمين ولا شلوتين ، والدنيا ليل ، يعنى ح تنهدم ناس كتير بتطاطى والريح يهاتى لولا أنا بس راسى ناشفه زيك ، وصدقت كل الكلام الزين اللى بتقوله فى الاذاعة - أهو أنا متعطل ونفسي هفانى علي نفس دخان . . ومتضايق . . وفى قلبى نار . . برضه ما بيفوتنى كلمه تقولها إلا وأسمعها كأنها موال . .)



١٥- حديث مطلي بالعواطف

المغربية المعتوقة من حريم الرشيد ، تلقي بشباكها التى نسجتها من دلال بنت بحرى فى ملاتتها اللف والبيشه والقصبة المذهبة على طول الأنف ألقت بها فى سوق (سوريا) بالمنشيه ، بين أمواج وصخور تجار الشنطة وقراصنة البحر وبلطجية أرصفة الميناء ، فإذا بها تسحب (سمكة) حلبيه لها سنة ذهب فى مقدمة الفم ، وحديث مقلى في العواطف ، أعدته فى مطبخها الزعربانى ، وقبل أن تلتهم (سمكتها) أفلت (رئيف) إلى الشمال ولم يخلف لها إلا طريقاً غير ممهد فى تجارة الشنطة وجمع القرش على القرش ، وكومة من الأحاديث الحلبية بلهجة الشوام الرقيقة ، المطوطه ، التى توجتها . . ملكة ، وحددت لها حدود الملكة . . ومن يمكن أن يكون بين رعاياها . .فلبست التاج فى طقوس خاصة . .

* * * * *

(أنت صنيعة نفسك يا ست حميده ، نحن ضحايا الظروف وعلينا أن نقبلها ونبدلها بأيدينا ، وإذا ما وقعنا بإستلامها إلتزمنا بها ، والدنيا مصالح ، ترينى بعين أراك بعين . . لا ليس بإثنين كما يقول العبط الحاتمى)

ليس فى التجارة كرم ، عينى ، إذا كنت مشحونه بالدلال واللسان الذى ينقط خمر معتقه هكذا ، لماذا لا تعملين بالتجارة ، اخواتنا المصريين دمهم شربات ويستغلونه فى الزراعة وجنى القطن ، هذا رأسمال ضائع ،

نعم بعضهم قد ينظر لشئ آخر وهو يساوم ، لكن المهم ليس(هو) المهم (أنت). . فكل انسان تحدوه الآمال . . لكن لابد وأن تكونى قد حددت هدفك . . الخط المباشر ، فى التجارة ، أطول مسافة بين نقطتين . .)

حزنت على (رئيف) ، لكنها لم تندم ، فقد أبقى لها بعض دروسه المستفاده . . ووجهه الشاحب الطويل وصوته الحنون . . وحكايه كان دائماً يحكيها . .

(عندما سيطر التجار على العالم ، ارادوا أجراء التجربة المستحيلة وضعوا الشمس مكان القمر ، احترق العالم وامتلأت البحار والأنهار بالسمك المسلوق ، وعندما شبع الفقراء من البروتين ومسكوا عافيتهم أول ما فعلوه أنهم أعادوا الشمس مكانها . . فازدهر العالم من جديد . .إلا أن التجار يحاولون مرة أخرى حرق كل شئ . .البعض يغمض عينيه ليحلم والبعض يغمض عينيه ليقطفوا من بستانه ثمره . لو كان حلبيا - لفتح عينيه قبل أن يغادروا البستان . . ليقبض الثمن . .)

* * * * *

عثرت (حميده) وهى تنظف الأثاث الجديد فى البيت الذى قلبته رأساً على عقب بمناسبة قرب قدوم (العيد) على لفافه أسفل سرير(فخرى) فضتها ، وجدت أنها تحتوى على (مخدرات) ، ضربت صدرها ، أبعد أن جرى القرش فى يديهم يأتى لها (بقضية) . . حدست أن فخرى قد رضخ لعليوه وسار فى ركابه . . لذلك فقد جدد المقهى وأمسى جزاراً . .لزر الرماد فى العيون ، . . لكن لماذا حطموا له المقهى ؟ . . وقعت فى حيرة انتظرت مقدمه ، عاتبته هلعه ، فاجأها بحقيقة اللفافة وكيف عثرت عليها زينب ، نصحته أن يعرض الأمر على (رشدى) وبسرعة التخلص من هذه

(التهمه) حتى لو اضطر ان يلقيها فى البحر ، أندهش ان يسمع منها هذا القول (حميده شريكة تاجر الحقائب السورى) قالت :

- يا ابنى لكل تجارة تجارها . . كما لكل انسان رأسه . .

- شئ الله يا شيخ رئيف ، ان كنت فى حلب أو دمشق أو فى شارع آخر من سوق (سوريا) المزدحم . .)

* * * * *

الشكاوى التى أرسلت ضد (عليوه) وعصابته ، باءت بالفشل ، الهجمات التفتيشية على مسكنه لم تسفر عن ضبط شئ ، بينما كافة (الموزعين) فى الأفراح والموالد وكازينوهات الشاطئ وغرز الحوارى ومساطيل السوق ، يؤكدون أن (عليوه) الموزع الوحيد .

وعليوه لم يقف مكتوف الايدى، فقد كان يعرف أن الريح تأتى من شلة قهوه فخرى الأكتع ، فكان يحرض من يعرفهم على - كتابة (الشكاوى) المضاده . . انهم ينسجون (فتنه) فى الحى الهادئ .

* * * * *

اقترح (رشدى عبد الدايم) وأيده فى ذلك (صلاح شريف) ، أن تذهب (حميده) إلى بيت المعلم عليوه - تشكو له - ابن زوجها فخرى ، بصفته أحد كبار رجال الحته ، أنه قد أوقف الصرف عليها وعلى أولادها منذ تحطيم المقهى ، وتنتهز الفرصة وتدس له (اللفافة) فى مكمن بمنزله ، فى الوقت الذى يتم ابلاغ (مكتب المخدرات) فهى بضاعته عادت إليه وعليه ان يتحمل نتائج ضبطها لديه ، فى البداية تمنعت وأبدت مخاوفها ، ولكن (رشدى) أقنعها بمنطقه الهادئ . والنظر فى عينيها متوسلاً ، ذهبت ، حميده ، استقبلتها زوجة عليوه العابسة بدون ترحاب ، وابلغتها أن (المعلم)

فى مشوار ، لكن حميده راحت تشكو ضائقها وتبكى وتفرض عليها أن تفسح لها الطريق إلى حجرة الجلوس ، شهقت ومسحت الدموع فى طرف ملاتتها . .

– بق مية يا أختى أبل به ريقى . . تكسبى فيّه ثواب . .

ما كادت زوجة عليوة تحرك جسمها الهائل بعيداً ، حتى اسقطت (حميده) اللفافة خلف المقعد ، شربت ، وبكت ، وتوسلت لها ان تبلغ (المعلم) سيد الرجال ، بأمرها وانها ستعود إليه مره أخرى . .

–أفوتك بعافيه يا ست ، ربنا يخلى لك المعلم ولا يحرمنامنه . .)

. . قبل صلاة العشاء ، حضرت قوة من البوليس فى سيارة (بوكس فورد) وهاجمت المنزل ، فتشته تفتيشاً دقيقاً و(عليوه) يعاتب قائد القوة ويؤكد له (انها بلاغات كيديه يا بيه ، من الأولاد بتوع السياسة الذين يطالبون بعودة محمد نجيب ويبشتموا فى عبد الناصر ويحرضوا الناس الغلابه ، يعملوا اضرابات ويقفلوا الدكاكين)

ويطالب الرجلين الذان كانا معه . .احدهما شيخ محدودب الظهر . .التأكيد على كلامه . .

اسفر التفتيش عن عدم العثور على شئ ، تأسف الضابط للمعلم عليوه وقال :

– إذا كان ما تقوله صحيحاً ، ارسل شكوى للمسئولين . .

– هى شكوى واحده . .قول ألف يا بيه . .لكن لساهم بيجتمعوا فى القهوه .

* * * * *

فى نفس المساء ، جاء (قبارى) إلى مقهى فخرى ، وقف على

الباب ، وصاح بأعلى صوته ليسمع رواد الركن الذى لم يعد كابياً . .

(المعلم عليوه بيدحرج المسا يا أكتع ، وبيقولك ، اللى وصلنا ، نصف الدين ويسعر النهاردة ، شوف الكرم ، والباقى مستعجلين عليه . .)

راح يحملق فى التجديدات التى تمت بالمقهى ، ويبتسم ابتسامه ذات مغزى (اديك صلحت القهوة وكلفتها الشئ الفلانى ، خسارة - مصمص شفتيه - والله خساره تتكسر ثانى ، وبكرة بيجى العجل اللى ح تدبحه وتبيعه للزباين المعلم ليس عنده مكان للعجل ولا عنده مناهده تربيتهم ، لو أخذناه سيفرق لحمه على الغلابه مجاناً ، لا قرش ولا عشره ، وقدام القهوه هنا . . خلى الفقراء تاكل . . ويدعوله . .)

طاشت الضربه . .واتي الدور على (عليوه) . . توقعنا انه سوف يرسل من يحطم المقهى مرة أخرى . . ونحن فى أشد حالات الحنق . .



١٦ - الاتكاء على طرف الليل

عندما تنؤ الروح تحت حمل الجسد ، يتحرر قرارى من القيود ، يخف حمل الآباء والاجداد ، أقتسم القمر نصفين ، النصف ربعين ، أضع فى كل ركن ربعاً من القمر ، اتوقع شلالاً من الضوء ، اتوسط الأركان وانتظر ، وإذ يلفنى الظلام ، ويطول ،أدهش ، أبحث عن ضوء القمر ، اتساءل أين ضوء الأقمار الاربعة ، اكتشف ان القمر لا يضئ إلا مكتملاً ، فقد بحثت عنه الشمس ، فوجدته نتفاً وشظايا لا يجمعها إطار . .)

اتخذت قرارى ، بالرحيل إلى الزوجة والانشغال باعداد المكان الذى سأقرأ فيه وأكتب ، ان يكون قريباً من حلمى القديم ، طالت عمليات الإعداد والتجهيز ، حتى بات الحلم (البسيط) باهتاً ، متداعياً . . البعض لم يتبين انى بداخل صندوق من الزجاج . . مكبل الرأس مطلق اليدين ، اشيح طلباً للنجدة فأبدوا لهم أنى أسبح فى النهار فى منظمة الشباب . . قالوا هذا شاب مناكف ، ليس فى رأسة سوى (عليوه) سألونى مراراً : من عليوه هذا ؟

فكنت أؤثر الصمت . . وأنا أرنو إلى - زوجتى الحامل - التى تصر على ان أكون بجانبها ، أحمل فى بطنى جنينها ، لأنها تعود من العمل مرهقة - تمحص بعض جنيهات . .

ويوم اعتقال صاحب قلعة باسيليوس الذى كان يهرب من السياسة ضربت كفاً بكف ، ويوم اعتقال حسين المحامى رفيق الحلم الليبرالى ضربت كفاً على الوجه ، اقترحت على صلاح وطارق أن نفعل شيئاً ان لا نبقى

أسرى أحزاننا . . شئ يشعرنا بوجودنا ، بعد ليال من التفكير وقدح الذهن انتهينا إلى كتابة (أفرجوا عن المعتقلين السياسيين) على بضع جدران ، وسور محطة الظاهرية . .

وتنفسنا الصعداء . . إذ فرغنا من النضال . . !

* * * * *

حثيثاً تجمعت فى رأسه الخيوط ، مختلطة ، متداخلة ، وبعد لأى قبض على بدايتها ، فإذا به (شرطياً) صغيراً مقطب الجبين ، عابس الوجه ذلك العبوس الذى يدفعك إلى أن تمد يدك وتداعبه ، ولكنه يبدو كدمية مدهونة من الخشب ، شد ظهره وبرز صدره وإشرأبت رقبته التى خنقتها الياقة الضيقه ، تمتد الأزرار الصفراء على صدرالحلة الزرقاء ذات الشرائط الجانبيه - الحمراء - متقاربه من تحت الذقن حتى منبت الساقين ، لم يكن شرطياً واحداً - فهو عينه - لسلسلة طويلة تنتهى فى صناديق متراصه طبقات فوق طبقات ، صفوفاً صفوفاً تفضى فى نهاية تعريجاتها إلى باب معمل كتب عليه - كل شئ حر - هناك يدخل البشر يسيرون جماعات كأفواج المجندين فى الريف تربط أكمامهم فى بعضهم البعض ، يصعدون إلى السير المتحرك ، ينامون عليه ، يسحبهم إلى داخل الآله الضخمة التى تهدر - آلة تدار بالبخار، تصف حديثه ، تصنع ضجيجاً هائلاً حولها ، ضجيج يصم الآذان ، يبتلع الكلمات . . تسحب البشر النائمين إلى داخلها ازرعتها تفتح أدمغتهم ، تفرغها من كل الخلايا وتضع بداخلها هذه الدمى الصغيرة ، ويواصل السير زحفه إلى حيث تقوم ازرع أخرى بغلق الرؤس على (الدمى) . . ويهبطون من الناحية الأخرى ، نشطين كالأرانب ، على الفور ينتظمون فى صفوف أمام (الكابتن) . . فجأه يعرفون كيف يحيون

الآخرين دون انتظار لرد التحية ، ثم يساقون إلى المطاعم لتناول الوجبات الساخنة والمشروبات الباردة ، وإذا بصوت المزياع ينطلق . . انتباه يتوقف الجميع عن الحركة . . كل فى مكانه ، ثم يطلق المزياع كلمة . .صفا . . فتنفرج السيقان ويخفون الأيدى خلف ظهورهم . . فوق إلياتهم العاريه وإذ لمحوا الكابتن فى أى ركن . . وقفوا انتباه وضربوا الأرض بالأقدام مع تعظيم سلام . ويطمئن الكابتن . . ويتقدم ليحى القائد

– تمام يـ أفندم . . القاعدة سليمة الآن . .أستلم . .

يوقع له بالحروف الأولى ، يومئ لنفسه شاكراً هذا المجهود العظيم لاستتباب النظام ، يحدف لهم الملابس لتغطية إلياتهم فى إحتفال مهيب ، وبالمناسبة يمنح نفسه وساماً . . وفى الاحتفال الثانى باختيار واحد من كل مائه ألف للطبقة الحاكمة ، وثلاثة من كل مائتى ألف للطبقة المعاونة ، ثم يقف ويمنح بركته للباقين . . يتمتعون بلقب (شعبى العزيز) ويمنح نفسه مكافأه ضخمة ورحلة إلى الخارج . . وعلى (الشعب العزيز) ان يتمتع بقراءة صحيفة واحدة ، بها خبر واحد ، طوال فترة العمر ، وقد قدرت بعد بحث طويل والاستعانة ببيوت الخبرة الأجنبيه بخمسة وعشرون عاما . . ويسمعون نفس الخبر ، فى الإذاعة ، ثم يمسرح الخبر الواحد فى المسرح وينتقل إلى التلفاز ، ويتاح للجميع حرية الجلوس أمام الشاشات لرؤية القائد المحبوب وهو يستقبل نفسه فى المطار ، أو يجلس مع نفسه فى قصر القائد ، وهو يمنح نفسه الأوسمة وهو يحدث نفسه فى خطب طويله ، وعندما لايشعر أحد بالملل ، يعاد هذا البث لجيل آخر . . ولكسر السأم سمح للشعب العزيز بالتصفيق ، ولهم حرية الإختيار فى التصفيق الخفيف أو المتوسط أو الثقيل ، . .)

فتح الباب ومن خلف البارفان ، ظهر المحقق الجديد ، له نفس الشارب المهذب بعناية فى خط مستقيم تحت الانف ، والشفاه الغليظة المقلوبة والاسنان الصفراء ، والنظرات الميته التى ترتفع ثم تسقط فى حركة لولبيه كلصوص الميناء . .

(المعلم عليوه . .يتنكر فى هيئة ضابط أمنى . .)

يوماً سخرت من رشدى عبد الدايم . . ولم أصدقه . .

لا أدرى كيف قفزت من صفوف (الشعب العزيز) إلى جماعة الواحد فى المائة ألف وإذا بى فى حلة عسكرية ، برتبة فريق أو مشير لم أتبين ، فقد كانت رتبة سياسية ، تخطت ألف ضابط كفء تملكنى الزهو ، وضعت ساقاً على ساق ، جعلت أسفل حزانى فى مواجهة (عليوه) مهما كانت رتبته فوجئ بوجودى . .نظر إلى رتبتى . . خبط كعبى حذاؤه ورفع يده إلى جبهته إلا انه بقى قزماً ضئيلاً لا يرتفع عن مستوى الحذاء . . قال :

– آسف يا أفندم على الازعاج . . يبدو أنى أخطأت المكان . .

قلت بإمتعاض واضح :

– ما أسباب هذه الجلبة فى المبنى ، استرح . .

قال بلهجة الرتب الأدنى . .

– بعض النسخ الكربونية ، يبدوا انها صدرت باهته ، يؤكد بعض علماء الواحد بالمائه ألف انّ (الشرطى) الذى وضع بداخل رؤسهم ، ادخل على الوضع رافداً ، وبعض العلماء يقولون ان رؤسهم لم تكن نظيفة تماماً من الخلايا فنشطت وبدأت تعمل ، وهذه حالة سرطانية ، نعمل على إستئصالها

حيانى مرة أخرى ، فشمخت بأنفى عالياً ، تعجبت أن (الحارس) لا

يزال جالساً عند الباب ، جلسته المعتاده ، ولكني لم اعره إلتفاتاً ، كان لا يزال يرنو إلى بعينين ناعستين ، ثم عبث فى جيبه واخرج سيجارتين فرط ، كانت علبته قد فرغت ، أشعلهما بعود ثقاب واحد ، وخطى نحوي وقدم لى السيجارة . . انزلت ساقى . . ثم اعدتها بسرعة ، سمعته يقول :

– خذ . .دخن ، يومكم بكره طويل . .

أمسكت بالسيجارة ونظرت إلى كتفى وصدرى . . سألته . .

– أين ذهبت الرتبه . .؟

– كان يتكلم معك وانت لا ترد ، ابق رد عليه يا استاذ ، الضابط ده . . طيب وابن ناس .

– من الواحد . . أم الثلاثه . .وللا من (الشعب العزيز)

نظر إلى الحارس طويلاً وهو يتراجع إلى الوراء . .حتى جلس على مقعده . .

* * * * *

لنجمى التائه شعاع ، يتوكأ عل طرف الليل ، يتفادى النجوم البعيدة والقريبة ، قاوم ليطل إطلالته الأخيره على صحراءى التى سار فى طرقاتها أخوة (يوسف) ليلقونه فى البئر ، هى نفس الطرقات التى سارت عليها القافله لتنقذه .

مسحت الريح عن كثبانها كل الآثار ، فبطلت فراستى ، وجريت فيها على غير هدى ، فى داخلى ذلك الذراع متباعد الاصبعين ، لا أدرى أهى علامة النصر ، أم زفرات الألم ، أتوه ، أرنو إلى تجاعيد فى بيداء العمر ، لعلها نفس الطرقات القديمة للأنبياء ، طرقات تؤدى بى إلى بئر ماء نجمى التائه ، مثقل بالصمت والأجساد الميته ، أطرق علها الأبواب

كيف يجيب الأموات ؟ كيف يبعثون ؟ وعندما يللني الندى ، أينعت ، كشجرة الصبار الشائكه . .وحيده . .تتحدى العطش والجفاف . .تجف قليلاً ولكنها باقيه . . ،

تمـــت

الاسكندرية /سيدى بشر
١٩٩٠ /١٩٩٣

كلمة

نوقشت هذه الرواية (مخطوطة) فى ندوة نادى القصة فى قصر ثقافة الحرية فى شهر أغسطس ١٩٩٣ ، دعى إليها أحد رعاة الحركة الأدبية بالاسكندرية :

الاستاذ / **عبد الله هاشم** وحضرها كل من السادة

د. أحمد صبره ، محمد محمود عبد الرازق

والزملاء الادباء :

مصطفى نصر	**ضياء طمان**
د. حوريه البدرى	**عبد النبى كراويه**
سعيد بدر	**محمود عبد الصمد**
أحمد حميده	**محمد عبد الوراث**
حجاج ادول	**على عوض الله كرار**
عبد الغنى السيد	**مصطفى عبد الشافى**
سمير أبو الفتوح	**محمد علام**
كمال عمارة	**عزه أنور**

وآخرين من الادباء والاديبات أعضاء النادى من الشباب .

وقد كانت آراؤهم وملاحظاتهم جميعاً محل اعتبار ، عند المراجعة النهائية ، كما أود أن أنوه بالجهد الذى بذله معى الزميل / كمال عماره فى مراجعة النص واعداده للطبع ، لهم جميعاً الشكر والتقدير.

عبد الفتاح مرسى

نوفمبر ١٩٩٣

كتب للمؤلف تحت الطبع

١- زعريانه رواية
٢- الدحديره رواية
٣- نقش أخضر قصص
٤- دبرنى يا زالبيا مسرحية

الأسكندرية ، سيدى بشر
ت : ٥٤٨٨١٥٢

الناشــر :
الثقافة الجديدة بالأسكندرية

رقم الايداع ١٠٣٢١/٩٣